الإسلام وحاجات الإنسان

الفسيولوجية والاجتماعية

الإسلام وحاجات الإنسان

الفسيولوجية والاجتماعية

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع

٤ شارع سيد الخطيب - الثلاثيني العمرانية الغربية - الجيزة .

ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ - ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

الإسلام وحاجات الإنسان الفسيولوجية والاجتماعية

محمد يونس هاشم



دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

الكتاب : الإسلام وحاجات الإنسان الفسيولوجية والاجتماعية .

المؤلف : محمد يونس هاشم

الناشر : دار نوبل للنشر والتوزيع ٤ شارع سيد الخطيب – الثلاثيني العمرانية الغربية – الجيزة .

ت : ٠١٢٠٣٢٠٩٠٥ – ٠١١٥٩٦٠٥٠٧١

الطبعة : ٢٠١٩

رقم الإيداع : ١٥٥٥٦

الهيئة العامة للكتاب

الفهرسة أثناء النشر

هاشم ، محمد يونس

الإسلام وحاجات الإنسان الفسيولوجية والاجتماعية ، محمد يونس هاشم ، الجيزة دار نوبل للنشر والتوزيع ٢٠١٩

ص ١١٠ – ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع : ١٥٥٥٦

١– دراسات

٢– العنوان

ديوي ٢١٤.٥

المقدمة

الفِطْرَة الْخِلقة التي يكون عليها كل موجود أَوّلَ خَلْقِه ، وهي مجموع الاستعدادات والميول والغرائز التي يخلقها الله تعالى في الإنسان منذ ولادته .

يقول علماء النفس إن من أهم ما يميز الفطرة الإنسانية افتقارها إلى مجموعة من الاحتياجات التي إذا فقد الإنسان إحداها ينتج عنه نوع من التوتر يدفع الإنسان إلى محاولة إشباع الحاجة المفتقدة ، وهذه الحاجة قد تكون داخلية : كالحاجة الى الطعام أو الماء أو الهواء أو اجتماعية كالانتماء أو التفوق أو الانجاز المرتفع.

ويقسم علماء النفس هذه الدوافع : دوافع فسيولوجية خالصة ، ودوافع نفسية اجتماعية.

والدوافع الفسيولوجية الخالصة: تقوم على أساس مبدأ توازن البيئة الداخلية للفرد ، ويؤدى إرضاؤها الى المحافظة على حياة الفرد وعدم تحقيقها يؤدى الى هلاك الفرد . ومن أمثلتها : دافع العطش ، ودافع الجوع .

وهناك دوافع فسيولوجية ذات طابع اجتماعى: وهذه الدوافع تحافظ على بقاء النوع وليس بقاء الفرد ويتطلب ارضاؤها الاشتراك مع إنسان آخر وعدم إشباع هذه الدوافع لا يؤدى الى هلاك الفرد . ومن أمثلتها: دافع الجنس ، ودافع الأمومة .

وهناك دوافع نفسية اجتماعية ليس لها أساس بيولوجى واضح ولكنها تشبع حاجات نفسية واجتماعية لدى الفرد مثل دافع الفضول ، ودافع الاعتماد على النفس ، ودافع الإنجاز ...

وسلوك الإنسان تجاه هذه الدوافع يتشكَّل وفقاً للمجتمع الذى يعيش فيه الإنسان وحسب الاعتقاد الذي يعتقده والشريعة التي يدين بها وتلعب أساليب التنشئة دوراً مهماً فى تنمية هذا الدافع ، وإشباعها بالطرق الصحيحة أو الخاطئة .

ولما كان الإسلام هو دين الله الذي ارتضاه لعباده فلا بد أن يكون هو النظام الأمثل الذي تستقيم الفطرة معه وبدونه تنحرف ، فالإسلام هو دين الفطرة .

ومعنى أن الإسلام دين الفطرة أن عقائده وعباداته وشرائعه وأخلاقه لا تتعارض مع فطرة الإنسان فحسب بل هي المتوافقة مع هذه الفطرة.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي اتجه لهذا الدين المستقيم وتمسَّك به وكن مستقيماً على أمره وهذه هي ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خلَقَهم عليها، وهي: قَبولُ الحقِّ وتمكُّنُهم مِن إدراكِه، أو : مِلَّةُ الإسلام؛ فإنَّهم لو خُلُّوا وما خُلِقُوا عليه أدَّاهم إليه؛ لأنَّ حُسنَ هذا الدِّينِ ثابتٌ في النُّفوس، وإنَّما يُعدَلُ عنه لآفةٍ مِن الآفات البشريَّةِ، كاتباع الشيطان والهوى والشهوات. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لا تبديل لهذه الخلقة التي خلق الناس عليها فإن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلَّة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في

ذلك ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي هذا الذي أمرتك به هو الدين القيم أي: الطريق المستقيم الموصل إلى اللّه وإلى كرامته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

فربط الله تعالى بين الفطرة وطبيعة هذا الدين، فالدين موافق للفطرة، والفطرة متوافقة مع هذا الدين، لأن كلاهما من عند الله تعالى ، فالذي خلق هذه الفطرة التي تقوده إلى معرفة الحق وقبوله هو الذي أنزل هذا الدين الذي هو دين الحق وأمرنا بقبوله وإتباعه.

يقول النبي ﷺ " ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] الآيَةَ. " [البخاري]

يبين النبي ﷺ أن هذه الفطرة الإنسانية تشمل جميع المخلوقات دون استثناء عند الولادة ، ولكن بعض الناس تمسخ هذه الفطرة باتباع الشهوات والشيطان والديانات المحرفة أو الوضعيه فتفسد وتضل ، وبعضها تتبع الدين الحق فتظل على أصل الخِلْقة نقية طاهرة .

كما يلد الحيوان حيواناً كاملاً صحيحاً وسليماً كما خلقه الله تعالى ثم يأتي أحد الناس فيشوه هذا الحيوان بقطع أذنه أو أنفه أو ذيله .

إذن فالإسلام هو دين الفطرة ومن خالفه فقد خالف فطرة الله التي فطر الناس عليها.

ولقد اختار الله للأمة المحمدية الفطرة النقية، وجعلها أخص خصائص دينها، وهدى نبيها ﷺ إلى الفطرة، ففي حديث الإسراء " ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ: في أَحَدِهِما لَبَنٌ وفي الآخَرِ خَمْرٌ، فَقالَ: اشْرَبْ أَيَّهُما

شِئْتَ، فأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فقِيلَ: أَخَذْتَ الفِطْرَةَ أَما إنَّكَ لو أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ. " [البخاري]

والإنسان بعيداً عن شرع الله تعالى يقع في براثن الشيطان والهوى والنفس الأمارة بالسوء فينحرف سلوكه تجاه الفطرة ، ويجنح إلى إشباع غرائزة بطرق غير مشروعة فخسر دنياه وآخرته .

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾ [آل عمران:١٤]

وفي هذا الكتاب محاولة لبيان كيف ضبط الإسلام الفطرة الإنسانية ولبَّى احتياجاتها بالطريقة الشرعية الصحيحة التي تضمن للإنسان السعادة في الدارين .

﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧]

* * *

فِطرَةَ اللهِ الّتِي فطرَ النّاسَ عليْهَا

الدوافع الفطرية

الغريزة هي الدافع الفطري للسلوك التلقائي غير الواعي لدى الكائن الحي الذي يسعى من أجل التكيف مع البيئة المحيطة به عن طريق تلبية الحاجات الفردية لهذا الكائن سواء أكانت حاجات عضوية أم وجدانية، من هنا يمكن فهم الغرائز الطبيعية على أنها المحفزات الطبيعية التي تدفع الكائن باتجاه البقاء والاستمرار في الحياة لكل جنس من هذه الأجناس على حدة، فالحاجات العضوية للمخلوقات الحية كالطعام والشراب والجنس تظهر على الكائن على شكل إحساسه بالجوع أو العطش والرغبة الجنسية دون اختيار منه لأي منها، فليس بإمكان أحد أن يقرر إنه لن يجوع بعد اليوم وهكذا في ما يتعلَّق بباقي الغرائز الحسية .

أما الحاجات الوجدانية للكائنات الحية كالحماية والأمان والاستقرار فتحركها وترفدها كل من غرائز الخوف والحب والانتماء التي تظهر على شكل عاطفة الأمومة والأبوة والوطنية وما إليها وهي التي ابتكرت لها البشرية حلولاً عبر إنشاء نظام الأسر والمجتمعات والدول على اختلافاتها في الأشكال والمضامين، وتتضافر كل هذه الغرائز مجتمعة في خدمة الغريزة الأساسية التي أودعها الخالق فيه وهي غريزة البقاء على قيد الحياة والاستمرار فيها وذلك حتى إشعار آخر يقضي الله فيه أمراً كان مفعولاً !

إذا كانت الحاجات الوجدانية في معظمها حاجات جماعية ويقتضي إشباعها أن ترتبط بفرد آخر على الأقل فإن الغرائز الحسية ترتبط مباشرة بأجهزة الجسم وتظهر عليه على شكل الحاجة الجسدية المباشرة إليها، وهي أول ما يشعر به الكائن الحي منذ الثواني الأولى لقيده على جدول الحياة وقبل أن يتشكل لديه الحد الأدنى من الإدراك الواعي وتظل مستمرة معه طالما أن هذا الجسد لا يزال حياً، من هنا كان الإلحاح الجسدي في اشباع حاجاته العضوية هو الأعلى صوتاً والأشد وطأة من بين جملة الغرائز جميعاً، وقد اقتضت حكمة الخالق أن يأخذ اشباع هذه الحاجات العضوية شكل المتعة بما يعود على صاحبه بالكثير من اللذة الحسية التي تجعل من إشباع هذه الغرائز أمراً مطلوباً بشدة من الكائنات الحية بل والهدف الوحيد من هذه الحياة لدى مظعم المخلوقات .

لقد انشغلت البشرية منذ بدايات وعيها الإنساني بمحاولات تهذيب وتقنين الغرائز لدى بني البشر وبالعمل على تقييدها ومنعها من الانفلات حفاظاً على البشرية من الانحدار إلى الحضيض الحيواني، فقد زرع الله تعالى هذه الغرائز في بؤرة اللاوعي لدى كل الكائنات الحية بنفس المقدار لا فرق في ذلك بين إنسان وحيوان غير أن ما يميز البشر عن غيره من المخلوقات هو متعة الخالق بنعمة العقل التي تميز بها الإنسان عمن سواه من المخلوقات . (١)

الفطرة بعيداً عن الدين

ولكن العقل بدون ضابط من دين الله تعالى يضل ويفسد ويصبح مطية الهوى والنفس وألعوبة الشيطان .

---

(٢) محمود الباتع " الإنسان والغريزة والأخلاق " موقع الحوار المتمدن .

وكان أن أفرز نتيجة هذا العقل غير المنضبط بدين الله أنماطاً من السلوكيات الإنسانية والمحددات الاجتماعية التي تعارفت عليها المجتمعات المختلفة باسم " الأخلاق" تلك الأخلاق النسبية التي أفسدت الفطرة الإنسانية ففشت الإباحية الجنسية وأبيح الزاوج المثلي وكثرت معاقرة الخمر ووئد الأطفال واللقطاء في مجتمعات تدعي العقلانية والأخذ في أسباب العلم ، والحضارة .

ومنظومة القيم الجماعية لأي مجتمع تتأثر بالعديد من المتغيرات الاجتماعية كالحالة الاقتصادية والبيئية والصحية والاستقرار المدني من عدمه حيث الحروب والكوارث الطبيعية وما ينتج عنها وما إلى ذلك من أوضاع قد لا يكون الفرد صاحب تأثير مباشر فيها في الوقت الذي لا مناص له من التأثر بها إن سلباً أو إيجاباً .

إذن اتفقنا على أن الغرائز الحسية لدى بني الإنسان تتوزع بالتساوي فيما بينهم فإن النوازع والحاجات العضوية تكون متساوية بينهم بالضرورة، ويبقى الوازع الثقافي هو الأبرز تأثيراً على السلوك الفردي بما يحتويه من قيم وأخلاقيات مكتسبة عبر التربية والتعليم والتوعية الذاتية وغير الذاتية فبقدر ما يتمكن الفرد من تحصيل الدوافع الأخلاقية الدينية ، بقدر ما يعطيه ذلك من الحصانة ضد النوازع الداخلية لنفسه الأمارة بالسوء دائماً كما أن من شأن المحتوى الثقافي للفرد أن يمنحه من الوعي ما يكفي لأن يعرف متى وكيف يكبح جماح رغبته الغريزية ومتى وكيف يطلق لها العنان .

مهما كانت المقدمات والأسباب فإن الانكفاء الإنساني على الإشباع العضوي للجسد والانفتاح الواسع على الغرائز الحسية من شأنه أن يلغي كل حاجة أخرى وخصوصاً الغرائز الوجدانية فلا يعود يعنيه أن يشعر

هو أو غيره بأية عاطفة تجاه أي شيء أو أي أحد فلا يعود يقيم وزناً لقيمة ولا لمقدس ولا لأي اعتبار أخلاقي ديني طالما أنه يحصل على متعته كما يريد .

لقد قادت الثقافة الغربية المعاصرة التي يريدون لها أن تكون عالمية، البشرية إلى مثل هذا المأزق الخطر فانفتح البشر على غرائزهم بشكل أصبح يتهدَّد الكيان الإنساني برمته وصار كل ما نراه ينذر بتحول المجتمعات البشرية إلى أنعام بل هم أضل سبيلاً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد:١٢] وذلك لطغيان شهوة التملك والسلطة على كل ما عداها وأصبح كل شيء من حق أي شخص طالما كانت له فيه مصلحة وأصبح أي شيء ملكاً لمن تمكن من الحصول عليه بفضل منطق القوة الذي غلب قوة المنطق، واختلط الحق بالمصلحة .(١)

خلق الإنسان في أحسن تقويم

لقد خلق الله تعالى الإنسان فأحسن خلقه وصوره فأحسن صورته .

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[غافر : ٦٤]

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤]

والحديث عن إعجاز الله تعالى في خلق الإنسان يطول ولقد هممت في بيان شيء منه لكنى تحيرت وطالت بى الحيرة بم أبدأ من الأعضاء وكلها بديعة وغاية في الإتقان ؟ وماذا أقول في كل عضو وكل عضو يحتاج كتاباً مستقلاً لتفصيل القول فيه ؟ ووجدت نفسى عاجزاً حيال إعجاز الله تعالى في خلق الإنسان.

---

(١) محمود الباتع " الإنسان والغريزة والأخلاق " موقع الحوار المتمدن بتصرف .

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤]

فأرجأت هذا الأمر لعل الله تعالى يمن عليَّ بالوقت والجهد لكتابة مصنف في هذا الموضوع الجميل والذي بدأ المسلمون يلتفتون إليه في السنوات الأخيرة وهو موضوع جد خطير لأنه أحد أهم الوسائل العصرية لتعريف الناس بقدرة الله تعالى في خلق الإنسان وإعجاز القرآن الكريم في بيان لمحات وإشارات هذا الإعجاز في خلق الإنسان أما خلق السموات والأرض فهو أكبر والإعجاز فيه أبهر .

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧]

كيف حافظ الإسلام على الجسد الإنساني ؟

ولقد أمر الله تعالى بالمحافظة على الجسد لأن بصحته تصح بقية المكونات فهو الذي يربط بينها جميعاً وإذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى وهو الذي يمد بقية المكونات بما يحفظ عليها حياتها وما يمكنها من القيام بدورها .

لذا لا عجب أن الإسلام حرص أشد الحرص على العناية بالجسم وأمر الإنسان بما يحفظ لهذا الجسم حياة سليمة صحية خالية من الأمراض .

ومما شرع الله تعالى لحفظ البدن :

التكليف في حدود الاستطاعة

أولاً : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

لم يكلف الله تعالى الإنسان بما لا يستطيع وبما ليس في وسعه أو ما يتنافي مع طبيعته .

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

فالله تعالى لم يكلف الإنسان إلا بما في مقدوره وبما يستطيع القيام به وحرم عليه التفرغ للعبادة والمبالغة فيها والرهبانية .

آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فَقَالَ لَهَا مَا شَأْنُكِ قَالَتْ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَ مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ فَقَالَ نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ نَمْ فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ قُمْ الآنَ قَالَ فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ " [رواه البخارى]

وأخرج البخارى عن أنس قال: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ."

عن سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ أَرَادَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ أَنْ يَتَبَتَّلَ فَنَهَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ أَجَازَ لَهُ ذَلِكَ لَاخْتَصَيْنَا. [رواه مسلم]

فالإسلام دين الفطرة وتشريعاته لا تجور عليها ولا تتناقض معها .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]

تحريم الخبائث

ثانياً : حرَّم الله تعالى على الإنسان الخبائث : لقد حرَّم الله تعالى على المسلم كل ما يضر الجسد أو يمرضه .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة : ٣]

كما حرم الله تعالى كل خبيث وأحل له كل طيب .

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

فكل ما أحل اللّه تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين .

أنواع النجاسات

حرَّم الإسلام كل أنواع النجاسات الظاهرة من بول وبراز ودم وكلب وخنزير وأوساخ ، وأشهر النجاسات المغلظة وما توافقت على نجاستها الأدلة ، أى ورد في نجاستها نص لم يعارضه نص آخر وهى :

١-الخمر : وقد ورد النص بنجاستها قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]

٢-الدم المسفوح من سائر الحيوانات التي لها دم سائل ، قال تعالى : ﴿قُل لاَّ أَجِدُ في مَا أُوْحِي إِلَى مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ﴾[الأنعام : ١٤٥]

٣- كل ما يخرج من جسم الإنسان وينقض الوضوء كالبول، والغائط، والدم، والصَّديد، والقيح، والمذى، والودى، والمنى، هو نجس. وبول الصغير كالكبير أكل أو لم يأكل. أما البول فنجس، لحديث ابن عباس قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: "إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا هَذَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ " [متفق عليه] .

وأما الغائط، فلما روى أنس بن مالك قال: " كان النبي ﷺ إِذَا تَبَرَّزَ لِحَاجَتِهِ أَتَيْتُهُ بِمَاءٍ فَيَغْسِلُ بِهِ " [رواه البخارى] . وأما الدم، فلما روت أسماء بنت أبى بكر الصديق قالت: سألت رسول اللّه ﷺ عَنْ دَمِ الْحَيْضِ يَكُونُ فِي الثَّوْبِ قَالَ " اقْرُصِيهِ وَاغْسِلِيهِ وَصَلِّي فِيهِ " [صحيح النسائى وابن ماجه] .

وأما المذى والودى، فعن ابن عباس قال: "المنى والمذى والودى. فالمنى منه الغسل ومن هذين الوضوء، يغسل ذكره ويتوضأ ". وأما المنى، فلما روى عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت في المنى: " كُنْتُ أَغْسِلُهُ مِنْ ثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَثَرُ الْغَسْلِ فِي ثَوْبِهِ بُقَعُ الْمَاءِ " [متفق عليه]

٤-الخنزير نجس وكل ما يخرج منه من لعاب وغيره نجس، لقوله تعالى : ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام : ١٤٥]

٥- بول ما يؤكل لحمه من الحيوان، وروثه، ولعابه، كنجو (براز) الكلب ورجيع السباع وبول الفأرة كلها نجسة مطلقاً إذا حلت بالماء. ويعفي عن قليله في الثوب والطعام للضرورة .

٦- ميتة الحيوان ذى الدم السائل ، لقوله تعالى : ﴿حرَّمت عليكم الميتة﴾ [المائدة : ٣] والإنسان إذا مات فهو نجس، فإن كان الميت مسلماً إذا غُسِّل فطاهر .

٧- أما الجلد فهو نجس قبل الدبغ لحديث ابن عباس قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: " إِذَا دُبِغَ الإِهَابُ فَقَدْ طَهُرَ " [رواه مسلم]

٨- رَوْث وبعر ما يؤكل لحمه من الحيوان هو نجس نجاسة مغلظة ، لما روى عن عبد اللّه بن مسعود أنه قال: " أَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْغَائِطَ فَأَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِثَلاثَةِ أَحْجَارٍ فَوَجَدْتُ حَجَرَيْنِ وَالْتَمَسْتُ الثَّالِثَ فَلَمْ أَجِدْهُ فَأَخَذْتُ رَوْثَةً فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَأَخَذَ الْحَجَرَيْنِ وَأَلْقَى الرَّوْثَةَ وَقَالَ هَذَا رِكْسٌ "
[رواه البخاري]

ونشهد كل يوم الأمراض التي تنشر في الأمم التي لا تأخذ بهدى الإسلام في المأكل والمشرب والنظافة وحفظ الفرج كـ : الإيدز ، والزهرى والسيلان ، والسرطان ، والالتهاب الرئوى الحاد المعروف باسم " سارس " والجمرة الخبيثة، وجنون البقر ، وأنفلونزا الطيور ... هذا بخلاف الأمراض النفسية والعصبية المنتشرة فيهم انتشار النار في الهشيم ، وكلها أمراض خطيرة فتاكة ناتجة عن استحلالهم للفروج ، وأكل الميتة ، وشرب الخمر ، وتربية الكلاب في البيوت ، وعدم الأخذ بأسباب النظافة الظاهرة والباطنة .

تشريع التداوي

ثالثاً : شرع الله التداوى ولقد علمنا النبي ﷺ أن نتداوى إذا ما مرضنا.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
[النحل : ٦٩]

في قوله تعالى: " فيه شفاء للناس" دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك وعن رسول الله ﷺ أنه قال: " لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]

وعن أسامة بن شريك قال : " قَالَتْ الأَعْرَابُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا نَتَدَاوَى قَالَ نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلا دَاءً وَاحِدًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ قَالَ : الْهَرَمُ "
[أبو داود والترمذى]

الأمر بالنظافة

رابعاً : أمر الله بالنظافة والجمال : أمر الله تعالى الإنسان بالنظافة وبالزينة في غير إسراف أو مباهاة .

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١]

والإسلام دين الجمال والنظافة والأناقة في غير كبر أو إسراف .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف : ٣٢]

فحسن الهندام وحسن المظهر وجمال الهيئة ليس كبراً إن كان لا يقصد به احتقار الناس والتعالى عليهم .

قال : النبي ﷺ قال " لا يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، فقال رجلٌ: إن الرجلَ يُحبّ أن يكون ثوبُه حسناً ونعلُه حسنةً، قال: إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ " [رواه مسلم]

ومعنى بطر الحق: تسفيهه وإبطاله. وغمط الناس: الاحتقار لهم والازدراء بهم.

فالإسلام يفرض على المسلم قبل الشروع في الصلاة أن يكون طاهراً من الحدث الأكبر كالجنابة والحيض أو الأصغر الناقض للوضوء وجعل إزالة الحدث الأكبر تكون بالغسل الذي يجب فيه تعميم الجسد بالماء مع نية الغسل .

أما إزالة الحدث الأصغر فيكون بالوضوء ، كما يشترط لصحة الصلاة طهارة الثوب من النجاسة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر : ٤] وكذلك طهارة المكان الذي سيصلى فيه .

كذلك يجب الطهارة من الحدثين عند لمس المصحف .

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة : ٧٧- ٨٠]

كذلك عند الطواف بالكعبة .

لقد اهتمَّ الإسلام ورسوله ﷺ بالنظافة أيما اهتمام والعجيب أن يأتى هذا الاهتمام الشديد بالنظافة في بيئة بدوية صحراوية عديمة الأنهار شحيحة المياه لدرجة أن كانت الحروب تقام بسبب المياه وكان المفترض والحالة هذه أن يكون موضوع النظافة ثانوياً لا يدخل في عبادة تكرر خمس مرات في اليوم والليلة كالصلاة .

وهذا ليس بمستبعد على الإسلام الذي كان ، كما بينا ، حريصاً على نظافة المسلم من الداخل من الكفر والحقد الحسد وسائر الأمراض الخلقية فهو يطهره من الخارج أيضاً فيفرض عليه الاغتسال من الجنابة

والحيض والنفاس ويفرض عليه الوضوء قبل الصلاة ، كما أوجب عليه الاستنجاء من البراز والاستبراء من البول .

مَرّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ" إنّهُمَا لَيُعَذّبَانِ وَمَا يُعَذّبَانِ في كَبِيرٍ أَمّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَبْرِىءُ مِنْ بَوْلِهِ وأَمّا الاَخَرُ فَكَانَ يَمْشِى بِالنّمِيمَةِ "

[متفق عليه]

كما سنَّ النبي تنظيف الأسنان بالسواك فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ" وْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي ، لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ "

[متفق عليه]

وأمر النبي بأن ينظف الإنسان شعره ويعتنى به فعن أَبى هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: "مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْه" [رواه أبو داود]

أى فليزينه ولينظفه بالغسل والتدهين والترجيل ولا يتركه متفرقاً فإن النظافة وحسن المنظر محبوبان .

كما سن رسول الله ﷺ الطيب للرجال وحبب فيه " إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ " [رواه أحمد والنسائى والحاكم]

وعن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال : " الْفِطْرَةُ خَمْسٌ الْخِتَانُ وَالاسْتِحْدَادُ (١) وَقَصُّ الشَّارِبِ وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ وَنَتْفُ الْآبَاطِ "

[متفق عليه]

والشاهد أنه ﷺ كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله عز وجل، وخشوع العبادة العظيمة ، عن مراعاة مصلحة بدنه ، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح، أو وسخ . (٢)

---

(١) والاستحدادُ: حلقُ شعر العانة .

(٢) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١ ص ١٩٩ .

ومن هديه ﷺ عند العودة من السفر أن يتمهل حتى تتزين النساء لرجالهن ويتجملن لهن . فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ فَقَالَ : " أَمْهِلُوا حَتَّى نَدْخُلَ لَيْلا أَيْ عِشَاءً كَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ " [متفق عليه]

فالله تعالى جميل يحب الجمال وليس كل ما تهواه النفس يذم ، وليس كل ما يتزين به للناس يكره ، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدين. فإن الإنسان يجب أن يرى جميلاً . وذلك حظ للنفس لا يلام فيه. ولهذا يسرح شعره وينظر في المرآة ويسوى عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج. وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم .

فالله تعالى كما يحب معالى الأخلاق ويكره رديئها يحب جمال المظهر ويكره قبحه .

قال ﷺ " إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها " [صحيح الطبرانى]

كما أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويكره التظاهر بالفقر .

" إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده ويبغض البؤس والتباؤس " [صحيح البيهقى] .

التباؤس : التظاهر بالفقر .

قال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله: وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه: أحدها: أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون

ضرورة. والثانى: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه. والثالث: إظهار التزهد؛ وقد أمرنا بستره. والرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة. ومن تشبه بقوم فهو منهم .[1]

وكان النبي ﷺ ينبه صحابته إلى ترجل شعرهم وغسل ملابسهم ، والاعتناء بنظافتهم الشخصية .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى رَجُلا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ فَقَالَ أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ وَرَأَى رَجُلاً آخَرَ وَعَلْيِهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ "

[صحيح أبي داود]

ولقد شبه النبي ﷺ ثائر الشعر واللحية بالشيطان تنفيراً من مظهره وإرشاداً لوجوب الاعتناء بجمال مظهر المسلم وهيئتة .

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ أَخْبَرَهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ ثَائِرَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنْ اخْرُجْ كَأَنَّهُ يَعْنِي إِصْلاحَ شَعَرِ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ فَفَعَلَ الرَّجُلُ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ ثَائِرَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ " [رواه مالك في الموطأ]

والحاصل إن اللّه جميل يحب الجمال فمن زعم أن رضاه في لبس الخلقان والمرقعات وما أفرط في الغلظ من الثياب فقد خالف ما أرشد إليه الكتاب والسنة .

ومع ذلك نجد بعض المسلمين من المتصوفة ومن غيرهم يرون في سوء المظهر تقوى وفي حسن الهيئة بطر وإن أحدهم ليطالعك بهيئة

---

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٩٧

شيطان أشعث أغبر تزكم رائحة نتنه الأنوف وعندما تسأله أن يستحم وأن يلبس ما يستره يقول لك ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] فيجمع بين قبح الهيئة والمظهر ، قبح الفهم والإدراك .

* * *

الإسلام والحواس

لقد حدد الإسلام لكل جارحة المهمة المنوطة بها وحرم عليها كل ما يفسد هذه المهمة .

البصـر

فالعين هى عضو الإبصار والجارحة التي يرى بها الإنسان ، ولقد خلق الله تعالى العين لكى يبصر الإنسان بها الحياة من حوله فيصلحها ويعمرها ، ويتأمل بها بديع خلق الله تعالى ويكتشف بها سنن الله في خلقه ...

والقرآن الكريم يدعونا إلى النظر والتأمل في بديع خلق الله واستخلاص الحكمة والعبرة منها ، فهذه السماء التي تظلنا كم آية فيها وكم إعجاز ! والأرض التي تقلنا كيف زللها الله تعالى لتكون صالحة للحياة فقد جعل الله فيها الأنهار لنشرب منها ونسقى الزرع والحيوان ، والبحار والمحيطات لنأكل منه لحما طريّاً ونستخرج منه اللؤلؤ .. كل هذا لنتمتع به ونشكر الخالق الوهاب .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق : ٦-١١]

إن صنعة الخلق مهما كانت متقنة لا بد لها أن تظهر فيها عيوب ، وأن تكون لها آثار سلبية مهما كانت مفيدة ونافعة ، أما خلق الخالق سبحانه فهو غاية التمام ونهاية الكمال وهو صالح على الدوام إلا إذا تدخل الإنسان فأفسده .

﴿الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك : ٣-٥] فالله تعالى مبدع كل نافع وخالق كل مفيد وواهب كل الحياة ومقوماتها .

﴿وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ٩٩]

ولقد أمر الله تعالى الإنسان أن يحفظ بصره من النظر إلى المحرمات، وإلى التطلع إلى ما ليس لها .

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور : ٣٠]

فالعين تزنى وزناها النظر كما أخبر النبي ﷺ " العين تزنى وزناها النظر " [متفق عليه]

والنظرة الحرام مدخل الشيطان للقلب ، ومن تركها مخافة الله تعالى قوى إيمانه وسلم قلبه ووجد حلاوة تقوى الله .

" النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه إيماناً يجد حلاوته في قلبه " [رواه الطبرانى والحاكم وصححه]

فمن حفظ بصره أورثه اللّه نوراً في بصيرته .

ولقد نهى النبي عليّاً أن يتبع النظرة النظرة فقال : " يَا عَلِيُّ لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ " [متفق عليه]

كما بشر النبي من يستخدم عينه في طاعة الله بالجنة : فعن ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " عَيْنَانِ لاَ تَمسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سَبيلِ اللهِ "
[صحيح الترمذى] .

الفرق بين البصر والبصيرة

وهناك فرق بين البصر ، والبصيرة ، فالبصر هو العين التي ترى الأشياء الظاهرة ، أما البصيرة فهى : قوة الإدراك والفطنة والعلم والخبرة والحجة .(١)

والبَشَر وإن كان معظمهم مبصرين فقليل منهم البصراء ، من على بصيرة ، فكثير من الناس من صحت أبصارهم فرأوا بها نعم الله لكن عميت بصائرهم فلم يعبدوا المنعم جل في علاه ، فالعمى ليس عمى البصر إنما العمى عمى البصيرة .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ التي في الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦]

وإن من حفظ بصره أورثه اللّه نوراً في بصيرته .

قال مجاهد : لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره

---

(١) انظر مادة " بصر " في المعجم الوسيط .

عماه شيئاً ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا " (١)

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ١٩٨]

إذن الأعمى الحقيقى هو من فقد حاسة البصيرة لا البصر ، الأعمى الحقيقى هو من عمى عن رؤية الحق بعد أن أبصره . ولقد أنزل الله تعالى الحجج والبراهين الناصعة للناس على لسان رسله وما معهم من شرائع إلهية لكى يؤمن الناس بالله والواحد الأحد ويعبدوه كما أمر لكن أكثر الناس عمى عن الحق إذ جاءه.

﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام : ١٠٤]

ومن ضل طريق الله فلن يهتدى ويظل في طغيانه يَعْمَه .

﴿وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يونس : ٤٣]

والله تعالى محاسب الذين رأوا آيات الله وأعرضوا عنها وتمتعوا بنعم الله وجحدوا خالقها ، أولئك كالحيوانات التي لا هم لها إلا الطعام والشراب ولا تعرف غاية من خلقها ولا تسلك سبل ربها ، بل الحيوانات أفضل منهم فهى طائعة لله لا تخرج عن الهدف من خلق الله لها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

(٢) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٧٧ .

وإن الله محاسب أولئك الكفرة الفجرة الذين استخدموا نعم الله في معصيته فالله سائلهم عن هذه النعم .

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾

ويقف هؤلاء المجرمون أذلاء أمام الحق تبارك تعالى لا يجدون ما يعتذرون به فقد أعطاهم الله البصر والسمع والأفئدة وغيرها من النعم فلم يحسنوا استخدامها .

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ١٢]

ومن يتخذ هواه إلهاً من دون الله ويعص الله بعد علمه بالحق يطمس الله على بصره وسمعه فيظل في طغيانه يتخبط .

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾
[الجاثية : ٢٣]

والله تعالى الذي أعطى السمع والبصر قادر على استرداد وديعته ولا يستطيع كائناً من كان أن يعيدها .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾
[الأنعام : ٤٦]

إن من يعمى عن ذكر الله بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم يسبب الله له شيطاناً يأمره بالكفر وينهاه عن الإيمان ويزين له سوء عمله فيراه حسناً ، ويحشره يوم القيامة أعمى ، لأنه لم يرى بعينه الحق فاستحق العمى والعذاب .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه : ١٢٤ – ١٢٦]

السمع

السمع : قوة في الأذن تدرك بها الأصوات ، ولولاها ما تفاهم الناس ولا تعاونوا ولا بلّغ الرسل رسالتهم ، ولا استمتع الناس بالأصوات الجميلة.

والسمع من نعم الله العظمى التي مَنّ بها على الإنسان ، ولقد خلق الله تعالى السمع للإنسان ليسمع به كلامه وتعاليم رسله ؛وليبيسر له سبل الحياة وتعمير الكون.

﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٨٧]

﴿وَهُوَ الذي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾

[المؤمنون : ٧٨]

أنواع السمع بالنسبة الشرع

والسمع منفذ للقلب والعقل كالبصر ، والناس بالنسبة للسمع والبصر على خمسة أقسام :

١–من يسمع الحق وينكره ويبصر الباطل ويتبعه هؤلاء الذين أخذوا عطاء الربوبية ، السمع والبصر والقلب والعقل فأفسدوه ،وأنكروا عطاء الألوهية رسالات السماء وهدي الأنبياء وحاربوه ؛ فهؤلاء كالحيوانات بل

أضل فهم كفار على مستوى الإيمان .. متخلفون على مستوى الحضارة والعلم ، ، وهؤلاء يعيشون في الدنيا جهَّالاً ويموتون كفَّاراً ، ويصلون في الآخر ناراً .

وفي مثل هؤلاء يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان : ٤٤]

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾
[محمد : ١٢]

٢- من يسمع ويبصر بعقل صحيح وقلب سقيم ، وهؤلاء وإن كان لهم حظ من علوم الدنيا ومن التقدم المادى فإنهم لا حظَّ لهم في الآخرة فلقد انتفعوا بالنعم وكفروا بالمنعِم ، تفكروا في الكون واستفادوا من سننه ولم يتفكروا في خالقه ولم يستفيدوا من رسالاته السماوية ، أخذوا عطاء الربوبية ، ولم يأخذوا عطاء الألوهية ففازوا بالدنيا وخسروا الآخرة وفيهم يقول الله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾
[الجاثية : ٢٣]

هؤلاء هم العلمانيون اللا دينيون والملاحدة الذين وصلوا إلى درجات عالية في العلوم المادية لكنهم جحدوا آيات الله وسخروا منها ورموا المؤمنين بالتخلف والإرهاب .

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾ [الأحقاف: ٢٦]

إن هؤلاء العلمانيين عقلاء يستخدمون عقولهم في تحقيق مصالحهم الدنيوية لكن قلوبهم مغلقة دون سماع كلام الله عليها أقفال من الكفر والفسوق والعصيان لا تسمح لكلمة التوحيد أن تنفذ إليها .

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد : ٢٥]

ولو شاء الله تعالى أن يعذب هؤلاء العلمانيين المتجبرين في الدنيا ما أعجزوه لكنه سبحانه أجل لهم العذاب .

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف : ١٠٠]

ويندرج تحت هذا القسم أهل الكتاب الذين عرفوا الحق وفهموه ومع ذلك اتبعوا هواهم ، واستكبروا على الإيمان بخاتم الأنبياء ﷺ الذي يعرفونه كما يعرفون أولادهم .

﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]

ولم يكتف هؤلاء بالكفر والعصيان بل راحوا يفسدون الأديان ويحاربون المؤمنين ولو أنهم اتبعوا الحق إذ عرفوه لكان خيراً لهم لكنهم آثروا الكفر على الإيمان ، والزيغ على الرشاد فاستحقوا لعنة الله وعذابه .

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء : ٤٦]

وأشد من هؤلاء كفراً هم المنافقون من المسلمين الذين عرفوا الحق وأهله لكنهم انضموا إلى الشيطان وحزبه يعينونه على إخوانهم المسلمين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة : ٩]

٣- من يسمع ويبصر بعقل كليل وقلب غليظ .وهؤلاء هم النصيون الحرفيون الذين سبق الحديث عنهم ، الذين أثَّر ضعف عقولهم وغلظة قلوبهم على فهمهم لدين ربهم فأساءوا فهم الدين والدنيا جميعاً فضلوا ، هؤلاء الذين قال النبي ﷺ فيهم : "القضاة ثلاثةٌ: اثنان في النّار وواحد في الجنّةِ: رجلٌ عَرَفَ الحقَّ فقضى بهِ فهوَ في الجنّةِ، ورجلٌ عرف الحقَّ فلم يقضِ بهِ وجارَ في الحكم فهُوَ في النّار، ورجلٌ لمْ يعْرف الحقَّ فقضى للناس على جَهْل فَهُوَ في النّار" [رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وصحّحهُ الحاكمُ]

والمدهش أن هؤلاء الجهال هم الأكثر شهرة في ميدان الوعظ وهم عنوان الإسلام أمام العالم وهذا من أحجيات الدهر .

٤- ومن يسمع ويبصر بعقل صحيح وقلب سليم ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين فهموا رسالتهم التي كلفهم الله بها في الدنيا : عبادة الله،

وتعمير كونـه ، فأعطـاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴿فَآتَـاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
[آل عمران : ١٤٨]

ويحكى الله تعالى لنا قصة هؤلاء المؤمنين حقاً ، فيقول جل وعلا .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِـى الألْبَـابِ الَّـذِينَ يَـذْكُرُونَ اللّـهَ قِيَامًـا وَقُعُودًا وَعَلَـىَ جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِـي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ رَّبَّنَا إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَـادِي لِلإِيمَـانِ أَنْ آمِنُـواْ بِـرَبِّكُمْ فَآمَنَّـا رَبَّنَـا فَاغْفِـرْ لَنَـا ذُنُوبَنَـا وَكَفِّـرْ عَنَّـا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَـا مَـعَ الأبْـرَارِ رَبَّنَـا وَآتِنَـا مَـا وَعَدتَّنَا عَلَـى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَـا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِـفُ الْمِيعَـادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّـى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَـى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّـذِينَ هَـاجَرُواْ وَأُخْرِجُـواْ مِـن دِيَـارِهِمْ وَأُوذُواْ فِـي سَـبِيلِي وَقَـاتَلُواْ وَقُتِلُـواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٠ – ١٩٥]

أرأيتم ماذا فعل هؤلاء المؤمنون العقلاء الصالحون ؟

لقد تفكروا في خلق السموات والأرض ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ واهتـدوا إلـى أنـه يـستحيل أن يخلـق هـذا صـدفة إنمـا وراءه خـالق عظـيم ، ومبـدع قـدير فآمنـت قلـوبهم بـالله سـبحانه ونزهـوه عـن الـشريك والولـد ووصـفوه بكـل صـفات الكمـال ونزهـوه عـن كـل صـفات النقص ﴿رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ ولهجت ألسنتهم بالدعاء والاسـتغفار للتـواب الـرحيم ﴿رَبَّنَـا فَـاغْفِرْ لَنَـا ذُنُوبَنَـا وَكَفِّـرْ عَنَّـا سَـيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ وتحملوا صنوف الأذى في سبيل الله ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ وكانت النتيجة أن استجاب لهم ربهم ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ وكان جزاؤهم ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ .

٥- من حفظ سمعه وبصره عن الحرام ، وأبقى قلبه وعقله على أصل الفطرة وعمل بما علم فشرح الله صدره للإيمان ونزَّه عقله عن الهوى والضلال .

" يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ " [رواه مسلم]

يريد ، والله أعلم ، أنها مثلها في أنها خالية من ذنب ،سليمة من كل عيب ،لا خبرة لهم بأمور الدنيا . وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]

فمن حافظ على أصل فطرته كما خلقها الله ولم يلوثها بالمعاصي والآثام وجاهد النفس والهوى والشيطان ولم تغره الحياة الدنيا ، وأدى ما فرضه الله تعالى عليه وتقرب إليه بالنوافل فهؤلاء هم أحباب الله وأولياؤه، والناس في ذلك ليسوا على درجة واحدة بل متفاوتون وأعلى درجاتهم أولياء الله الذين تولاهم الله تعالى وتولى حفظهم وحياطتهم ورضى عنهم فلا يخافون يوم القيامة ولا يحزنون .

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفي الآخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٢ – ٦٤]

وهـؤلاء لـيس شـرطاً أن يكونـوا مـن العلمـاء المـشهورين أو الفقهـاء المعروفين لينالوا هذه المكانة ، بل ربما كانوا من عامة الناس البسطاء سلماء القلب .

يقول الله تعالى في الحديث القدسى : " إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ "

[رَوَاهُ الْبُخَارِى]

والمراد بـ " كنت سمعه ..." أحفظه كما يحفظ العبد جوارحه من التلف والهلاك، وأوفقه لما فيه خيره وصلاحه، وأعينه في المواقف وأنصره في الشدائد " قال الخطابى: هذه أمثال والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعه ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعى إلى الباطل برجله " (١)

فمِن طُرُق العلم والهداية التجرد لله مع صدق النية وحسن العمل .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[العنكبوت: ٦٩]

قال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم : هى في الذين يعملون بما يعلمون وقد قال ﷺ: " من عمل بما علم علمه الله ما لم يعلم" وقال عمر بن

(١) ابن حجر " فتح البارى " ج ١١ ص ٣٤٤

عبد العزيز: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا ؛ قال الله تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ وقال أبو سليمان الدارانى: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين؛ وقمع الظالمين؛ وعظمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر . [١]

فمن غضَّ بصره عن محرَّم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدى بها سامعوه، ومن غض نفسه عن شبهة نوَّر الله قلبه نوراً يهتدى به إلى طريق مرضاة الله " [٢]

ويندم كل من لم يسمع سماع تدبر واعتبار يوم القيامة

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا في أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

[الملك : ١٠]

فالسماع إذن خمسة : سماع غفلة واستنكار ، وسماع علم واستكبار ، وسماع جهل وتكرار ، وسماع وعى واستبصار، وسماع أطهار وأبرار .

فهناك من يسمع بأذنه ولكن عقله غافل وقلبه منكر فيطمس الله على عقله وقلبه جميعا فيعيش جاهلاً ويموت كافراً .

وهناك من يسمع بأذنه ويتفكر بعقله لكن قلبه مشرب بحب الدنيا والهوى فيطمس الله على قلبه فلا يؤمن وإن كان يعطيه نصيبه من متاع الدنيا بقدر علمه وسعيه فيها .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٣ ص ٣٦٤ .

(٢) من كلام محمد بن سعد بن أبى الحسين الوراق حكاه عنه ابن كثير في البداية النهاية ج١١ ص ١٩٠

وهناك من يسمع بأذنه لكنه يسيء الفهم بسبب جهله ، وغلظة قلبه فهذا المسلم المتنطع شدد على نفسه فشدد الله عليه .

وهناك من يسمع بأذنه ويتدبر بعقله ويؤمن بقلبه فيعتبر ويهتدى وأولئك هم العلماء العاملون الهادون المهتدون .

وهناك من يسمع بأذنه فيفهم عن ربه بسبب سلامة فطرته وطهارة قلبه فيملأ الله قلبه نورا يهدى به رغم قلة علمه بعلوم الدنيا و الدين .

معاصى السمع

ولقد حرم الله تعالى على المؤمنين جملة من المحرمات الخاصة بالسمع مثل : التجسس ، والغيبة ، والنميمة ، والبهتان واللغو .. وكلها أمراض تفسد المجتمع وتدمر القيم الفاضلة والأخلاق النيلة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات : ١٢]

عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلا يَنُمُّ الْحَدِيثَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : "لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ " [رواه مسلم]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ " أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ "

[رواه مسلم]

ويعلمنا النبي ﷺ أن نرد غيبة المسلم فإذا سمعنا من يغتابه نرده ، وبشرنا النبي ﷺ بأن من يرد غيبة أخيه فسيرد الله عن وجهه النار

فيقول ﷺ : " مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ فِى الْغِيبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ " [صحيح رواه أحمد)]

وعلى المسلم أن يعرض عن مجالس اللهو المحرم التي تسمع فيها النميمة والغيبة والبهتان، فقد جعل الله تعالى من صفات المؤمنين أنهم يعرضون عن اللهو المحرم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون : ٣]

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص : ٥٥]

ويحذرنا الله تعالى من الجلوس مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله ويسخرون من الذين آمنوا و ويأمرنا بألا ننافقهم بالطعن في إخواننا المؤمنين أو الطعن في الدين حتى لا نكون أمثالهم .
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾
[النساء : ١٤٠]
ما أسوأ أصدقاء السوء من الفسقة والعلمانيين على المسلم فإنهم مهلكوه بما يفترونه على دين الله وشرعه .

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الإنعام : ٦٨]

وإن كثيرا من الناس من يظن أن مشاركة الناس حديثهم – حقاً أو باطلاً – من الذوق واللباقة ، فإذا تكلَّم الناس في الدين تكلم وإن سبوا

في الحكام صدق على كلامهم وإن اغتابوا أحداً شارك ، وإن تكلموا في الجنس ابتهج ، وإن استهزئوا بآيات الله لم يعترض !!

ولقد علمنا النبي أن نكون أصحاب مواقف إيجابية فلا ننساق وراء الناس في الشر بل في الخير وحسب فيقول ﷺ : " لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا " [رواه الترمذى وحسنه]

والإمعة هو الذي يتابع كل ناعق ويقول لكل أحد أنا معك لأنه لا رأى له يرجع إليه . ومعناه: المقلد الذي يجعل دينه تابعاً لدين غيره بلا رؤية.. وفيه إشعار بالنهى عن التقليد المجرد حتى في الأخلاق فضلاً عن الاعتقادات والعبادات .(١)

وللأسف الشديد إن هذا المرض شديد الانتشار في بلادنا لا يكاد يسلم منه أحد ، إلا من رحم ربى ، فالمرء يدور مع الحديث حيث يدور ويشارك الجالسين فيما يقولون وخاصة إن كان المتحدث رئيساً أو مسئولاً فإن المرءوسين يصدقون ويصفقون ويثنون ويمدحون ثم ما يكاد المسئول يعطيهم ظهره حتى يلمزوا ويتغامزوا ثم يسبوا ويشتموا !

وهم بذلك يكونون قد ارتكبوا جنايتين أولهما : سكتوا عن الحق في وجه من نطق بالباطل ، وثانيهما : نطقوا بالباطل في وجه من سكت عن الحق .

والله تعالى سوف يُشْهِد على الإنسان الكافر والعاصى جوارحه .

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت : ٢٠]

---

(١) المباركفورى " تحفة الأحوذى " . باب ما جاء في العفو والإحسان .

إن الكفار والعصاة يظنون أن الله غافل عما يعملون ، وأنهم ما داموا قد سُتِرُوا في الدنيا و نجوا من ملام الناس ، ولكن الله تعالى محيط بهم وإن فعلوا المعاصى في غفلة من أعين الناس فعين الله ساهرة لا تنام فالله تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ويُشْهِد عليهم جوارحهم التي عصوا الله بها .

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت : ٢٢]

فأين تذهب أيها العاصى من عذاب الله تعالى فإذا استطعت أن تفلت من العقاب في الدنيا فزورت ورشوت وشهدت زوراً ووجدت من يدافع عنك بالباطل فإن الشهود يوم القيامة لا يرتشون ولا يكذبون إن الشهود هم جوارحك التي ارتكبت بها جرائمك هل تُكّذب جوارحك ؟ هل تُكّذب لسانك ويديك ورجليك ؟

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[النور: ٢٤]

لن يفلح الكذب يوم القيامة ولن يفيدك الإنكار لأن من ارتكبوا الجرائم يعترفون بكل شيء أمام الله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس : ٦٥]

ويتعجب الإنسان الكافر والعاصى كيف تنطق الجوارح وتشهد عليه فهو يظن أنها ملكه وأنها مؤتمرة بأمره ولا يمكن أن تكون ضد . فتجيبه جوارحه بالحقيقة التي جهلها في الدنيا وهى أن الجوارح ملك لله تعالى هو خالقها وسيدها ومولاها الحقيقى وإنما كانت عند الإنسان أمانة ووديعة ويوم القيامة يسترد الله تعالى أمانته وينطقها لتشهد لصاحبها أو

عليه فلا عجب . ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت : ١٩- ٢١]

اللسان

اللسان : آلة النطق ولولاه ما كان هناك تفاهم ولا تخاطب بين البشر ولاستحالة الحياة على ظهر الأرض ، كما أنه ترجمان العقل والقلب ، وأداة التذوق ، واللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير جِرْمه عظيم طاعته وجُرْمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، وكل ما يتناوله العلم يعرب عنه باللسان إما بالحق أو بالباطل، واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك طريق الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ولا يكب الناس في النار على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو في عاجله وآجله من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله .(١)

فاللسان إذن من نعم الله الخلاق العظيم خص بها الإنسان ليرطبه بذكره ويستخدمه في تعمير كونه وهداية خلقه .

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد : ٨-٩]

---

(١) أبو حامد الغزالى " إحياء علوم الدين " ج ٣ ص ٩٣

ومـن يعبـد الله وحـده ويكفـر بالـشيطان وحزبـه ويـدعو ربـه ولا يـشقى بدعائه فإن الله تعالى يرفع ذكره في الدنيا بالسلف الصالح ويهب لـه من رحمتـه مـا يحـول بينـه وبـين معاصـيه ، ويثنـى الـصالحون عليـه الثنـاء الجميل .

﴿وَأَعْتَـزِلُكُمْ وَمَـا تَـدْعُونَ مِـن دُونِ اللَّـهِ وَأَدْعُـو رَبِّـى عَـسَى أَلاَّ أَكُـونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٩ – ٥٠]

وإذا أحسن الإنسان لجام لسانه عن الشر ، ورطّبه بذكر الله تعالى ، وحفظ فرجه عن الزنا أدخله الله الجنة .

قال رسول الله ﷺ : " مَنْ يَضْمَنْ لِى مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ (المقصود اللسان) وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ (المقصود الفَرْج) أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ " [رواه البخارى]

لقد نبهنا الرسول الكريم ﷺ لخطورة اللسان وحذرنا من آفاته .

عن أسود بن أبى أصرم المحاربى قال: قلت يا رسول الله أوصنى. قال: "هل تملك لسانك ؟ قلت: فما أملك إذا لم أملك لسانى. قال: فهل تملك يدك ؟ قلت: فما أملك إذا لم أملك يدى! قال: فلا تقل بلسانك إلا معروفا ولا تبسط يدك إلا إلى خير" [صحيح رواه الطبرانى]

فالنجاة في حفظ اللسان عن الحرام وفي التوبة والندم على المعصية .

فعن عقبـة بـن عـامر: قلـت يـا رسـول الله مـا النَّجَـاةُ ؟ قَـالَ " أَمْسِكْ عليك لِسانَكَ ، ولْيَسَعْكَ بَيْتُكَ. وابْكِ على خطيئتك" [صحيح الترمذى]

وباللسان تستقيم بقية الجوارح أو تعوج .

فعن أبى سعيد الخدرى رفعه إلى النبي ﷺ قال: " إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تَكْفُرُ اللِّسانَ ، تَقُولُ : اتَّقِ اللهَ فِينَا ، فَإِنَّما نَحنُ بِكَ؛ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا ، وإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا "

[حديث حسن رواه الترمذى والبيهقى]

وكثير من الناس من يستهين بالكلام ولا يأبه بحصيد لسانه فليعلم هؤلاء أن من أكثر الذنوب التي تكب الناس على وجوههم في النار هى حصائد ألسنتهم .

عن مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ ؟ قَالَ : " ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ " [صحيح رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه]

وقال : ﷺ " إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجاتٍ ، وإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلَمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا في جَهَنَّمَ " [رواه البخاري]

إن المسلم ، فضلا عن المؤمن ، لابد أن يحفظ لسانه ويجنب الناس شروره وبوائقه فالنبي يعرف المسلم بقوله : " الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ " [متفق عليه]

آفات اللسان

ولقد جعل الله تعالى رسالة اللسان الكلمة الطيبة النافعة وحرم عليه الكذب ، الغيبة، والنميمة ، والبهتان ، والخوض في أعراض الناس وشهادة الزور ، وتزكية النفس ، وإيذاء الناس ...

وآفات اللسان كثيرة وقد أفرد المصنفون لها كتباً مستقلة وسنكتفي هنا ببيان أهمها.

وأهم آفات اللسان الكذب فهو رأس كل مذموم وجماع كل شر فالكذب ينفي عن صاحبه الإيمان ويسلكه مع المنافقين والفجار ومآله إلى النار فلا يدخل الجنة كذاب.

" إِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا " [متفق عليه]وهو صفة من صفات المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾
[النساء : ١٤٥]

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ " [متفق عليه]

ومن الناس من يكذب ليُضْحِك غيره ويعد ذلك مزاحاً بريئاً لا حرمة فيه ولا بأس ، والحقيقة أن المزاح إن كان يشتمل على كذب فهو حرام وتوعد النبي صاحبه بالويل " وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ، فَيَكْذِبُ ؛ لِيَضْحَكَ بِهِ الْقَوْمُ، وَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ " [حديث حسن رواه أحمد والترمذى]

أما المزاح البريء الخالى من الكذب والفحش مباح ، وكان النبي يمزح ويداعب ولا يقول إلا حقاً ولا ينطق إلا صدقاً .

عن أبى هريرة قال: قالوا: يا رسولَ اللّه! يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا. فَقَالَ : " إِنِّى لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا " [صحيح الترمذى]

ومن الناس من يمنى طفله ويكذبه ، ويعده ويخلفه وهذا حرام أيضاً ويكتب على صاحبه كذبة .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَنَا وَأَنَا صَبِىٌّ صَغِيرٌ فَذَهَبْتُ أَلْعَبُ فَقَالَتْ لِى أُمِّى : يَا عَبْدَ اللَّهِ تَعَالَ أُعْطِيكَ. فَقَالَ

رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : " مَـا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيـهِ؟ " . قَالَـتْ : أَرَدْتُ أَنْ أُعْطِيَـهُ تَمْرًا. قَالَ : " أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي لَكُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةً "
[أبو داود والبيهقى وأحمد]
والمؤمن لا يكذب ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّـهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل : ١٠٥]
ومن أشد أنواع الكذب شهادة الزور فهى من أكبر الكبائر .

قال رسول الله ﷺ :

" أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللَّـهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَـهَادَةُ الـزُّورِ وَشَـهَادَةُ الزُّورِ ثَلاثًا أَوْ قَوْلُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ " [متفق عليه]

الفرق بين الكذب والتكذيب

وهناك فرق بين الكذب ، والتكذيب .

الكذب : إخبار بخلاف ما هو عليه في الواقع ، أما التكذيب : فهو الإنكار والجحود .

والكذب كبيرة من الكبائر كما بينا أما تكذيب الرسل ، وجحود رسالة الله فهو الكفر الصراح ، وتوعد الله تعالى صاحبه بالخلود في النار .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٩] ﴿وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام : ٢٧]

والله تعالى يوم القيامة ينطق الجوارح بالحق ليشهدوا على الكاذبين المكّذبين الذين لا يسمح لهم بالقول ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٣ – ٨٥]

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات :٣٤ – ٣٦]

وكان الإمساك عن الكلام من بين ما يصام عنه ، كالطعام والشراب ، في شريعة الأمم السالفة فخفف الله عن أمة محمد وجعل لهم الصوم إمساك عن الطعام والشراب والجماع وعن قبيح الكلام فقط .

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم : ٢٦]

كانت سنة الصيام عند الأمم السابقة الإمساك عن الأكل والكلام ومن سنة خاتم المرسلين في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح قال ﷺ : " الصِّيَامُ جُنَّةٌ. فَإِذَا كَانَ أَحَدَكُمْ صَائِمًا فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ ، فَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي صَائِمٌ " [متفق عليه]

وقال ﷺ : " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ " [رواه البخاري]

ولقد أدرك الغرب أن الكذب رأس كل آفة ، وعماد كل انحراف خلقى واجتماعى فربُّوا أولادهم على الصدق ، وأباحوا لهم كل الفواحش إلا الكذب فهى أكبر الكبائر عندهم ، وقضية " كلينتون مع مونيكا لوينسكى خير شاهد على ذلك فلقد حوكم كلينتون وكاد أن يُقْصى عن الحكم لا بسبب فعله الفاضح مع مونيكا – فهذا أمر مباح ومعتاد في أمريكا – ولكن بسبب كذبه على المحلِّفين وإنكاره لحقيقة علاقته بها ، وإن اعترافه بعد ذلك هو الذي نجاه وأبقاه في السلطة .

وللأسف الشديد وبرغم أمر الإسلام بالصدق وتحذيره الشديد من الكذب – كما بينا – إلا أن المسلمين يكادون أن يكونوا وحدهم الكذَّابين في العالم ، فالكذب صفة متفشية في المجتمعات الإسلامية لا يكاد يسلم منها أحد ، إلا من رحم الله ، حاكماً أو محكوماً صغيراً أو كبيراً رجلاً أو امرأة !! ، وإنَّا لله وإن إليه راجعون .

ذكر الله

إذا كان الإسلام حرم الكذب وحرم كل ما يؤذى من قول فإنه أمر بأن يكون اللسان ذاكرا لله تعالى يلهج بالثناء عليه بما هو أهله سبحانه يدعوه فالدعاء مخ العبادة ، ويستغفره، فالاستغفار مفتاح مغفرة الذنوب وستر العيوب ، وسعة الرزق ، وعلاج العقم ، ودخول الجنة ، والنجاة من النار .

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾

[نوح : ١٠ – ١٢]

وكثير من المسلمين يقصر ذكر الله تعالى على ذكر اللسان فقط ، وهذا مفهوم ضيق لذكر الله فذكر اللسان من ذكر الله تعالى نعم ، ولكنه ليس كل ذكر الله تعالى فكل عضو من أعضاء الإنسان له ذكره، فذكر القلب الخشوع ،والتقوى ، وذكر العقل التدبر والتفكر ، وذكر العين التأمل في بديع صنع الله ، والنظر في كتابه ، وذكر الأذن سماع كلام الله والطيب من القول ... والخلاصة ذكر الله تعالى المقصود به أن يكون الله تعالى معك أينما كنت وأن تؤدى ما أمرك الله به وتنتهى عن كل ما نهاك الله عنه في كل موقف أنت عليه ، وكل حال تمر به،

فإذا أذن المؤذن للصلاة فذكرك الله أن تلبى النداء وتقوم للصلاة ، وإذا رأيت فقيراً وكنت قادرا فذكرك لله أن تعطيه ، وإذا رأيت كاسية عارية فذكرك لله أن تغض بصرك ، وإذا ذهبت إلى عملك فذكرك لله أن تخلص فيه ، وإذا سمعت غيبة أو نميمة فذكرك لله أن ترد غيبة المسلم وتنصح المغتاب أو النمام بالكف ...

أما من يفهم أن الذكر شقشقة باللسان لا تبلغ الجنان ، القلب ، فقد أخطأ ولقد ابتليت الأمة الإسلامية ببعض صور الذكر ما أنزل الله بها من سلطان ولا يقرها عاقل من بنى الإنسان ، كحلقات الذكر التي تقيمها بعض الطرق الصوفية في الموالد يتمايلون فيها على أنغام الموسيقا بما لا يليق بذكر الله جل وعلا .

يقوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾
[البقرة : ١٥٢]

أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له. وسمى الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبى ، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللسانى صار هو السابق للفهم ومعنى الآية: اذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة، قاله سعيد بن جبير وقال أيضاً : الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن " (١)

من أذكار الصباح والمساء

ولقد علمنا النبي أذكارا نقولها في الصباح وأخرى في المساء ، وما من حالة يمر بها العبد إلا وللنبى فيها ذكر جميل يرطب العبد لسانه بذكر مولاه جل وعلا ويدفعه لعمل الطاعات ويجنبه المعاصى والزلات.

فإذا استيقظ من النوم قال :

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٧١ .

" قالَ الْحَمدُ لله الذي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النّشُورُ " .
وإذا دخل الحمام قال :
" اللَّهُمَّ إنى أعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبْثِ وَالخَبَائث" .
وبعد وضوئه يقول :
" أشْـهَدُ أنْ لاَ إلَـهَ إلاّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَـهُ وَأشْـهَدُ أنّ مُحمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ " .
فإذا قام إلى صلاته افتتح الصلاة بتكبيرة الإحرام ثم يقول :
" وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً مُسْلِماً وما أنا من المُشْرِكِينَ، إنَّ صَـلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيـاى وَمَمَـاتِى لِلَّـهِ رَبّ العـالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأنَا مِنَ المُسْلِمينَ " .
وقبل أن يسلم يقول :
" اللَّهُمَّ إنـى أعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَـةِ المَسيحِ الدَّجَّال، وأعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَـةِ المَحْيا والمَماتِ، اللَّهُمَّ إنـى أعُوذُ بِكَ من المأثمِ والمَغْرَمِ" .
وبعد الصلاة يقول :
"لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَـهُ الحَمْدُ وَهُوَ على كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ اللَّهُمَّ لا مانِعَ لِمَا أعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِى لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ ".
فإذا أكل قال :
"إذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَاماً فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله، فإنْ نَسِى في أَوّلِهِ فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله في أَوّلِهِ وآخِرِه " .
فإذا فرغ من الطعام قال :

" الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أطْعَمَنِى هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّى وَلاَ قُوَّةٍ، " .

فإذا لبس ملابسه قال :

"مَنْ لَبِسَ ثَوْباً فَقالَ: الحَمْدُ للّه الذي كَسانى هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقنيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّى وَلا قُوَّة، غَفَرَ اللّه لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ " فإذا خرج من البيت قال :

" باسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ على اللَّهِ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ " .

فإذا ركب وسيلة المواصلات قال :

﴿سُبْحانَ الذي سَخَّرَ لَنا هَذَا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ("مُقرنين": أى مُطيقين) ، وَإنَّا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ .

وهو في أثناء ذهابه إلى عمله يردد :

" أَصْبَحْنَا وَأصْبَحَ المُلْكُ لله رَبّ الْعَالَمِينَ. اللّهُمّ إِنّى أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَ الْيَوْمِ فَتْحَهُ وَنَصْرَهُ وَنُورَهُ وَبَرَكَتَهُ وَهُدَاهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ ما فِيهِ وَشَرّ ما بَعْدَهُ، ثُمّ إذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ" " اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّى لا إلهَ إلاَّ أنْتَ خَلَقْتَنِى وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَى، وَأبُوءُ بِذَنبى، فاغْفِرْ لى فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ ما صَنَعْتُ " .

وهكذا في كل عمل يعمله ومكان يدخله فيه ذكر حتى يعود إلى بيته فيقول :

"إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إنِّى أسألك خير المولج وخير المخرج، بسم اللّه ولجنا، وبسم اللّه خرجنا، وعلى اللّه ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله" .

وقبل النوم يقول :

"إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فإِنَّهُ لا يَدْرِى ما خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: باسْمِكَ رَبى وَضَعْتُ جَنْبِى وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِى فارْحَمْها، وَإِنْ أَرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِينَ" .

وهكذا أذكار عند السفر ، وأذكار عند الكرب ، وأذكار عند زيارة المريض ، وأذكار عند إغماض الميت ، وأذكار عند هبوب الريح ، وعند سماع صوت الرعد، وعند رؤية الهلال ، وأذكار عند التثاؤب ، وأذكار عند لقاء العدو وذى السلطان .. وعلى الجملة ما من حالة يمر بها العبد من ساعة أن يستيقظ إلى أن ينام إلا وفيها ذكر ومن ساعة ما يولد إلى أن يموت إلا وفيها ذكر .

طمأنينة القلب

ومن لطائف بعض العارفين قولهم : إن طمأنينة القلب أعلى درجات الإيمان وكان فيما سبق لا يصل إليها عبد إلا إذا عاين غيبا فها هو خليل الله إبراهيم الذي طلب أن يرى كيفية إحياء الموتى ، وهى غيب ، لكى يرتقى من حالة الإيمان إلى طمأنينة القلب وفي ذلك يقول الحق جل وعلا ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِـى الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠]

فسيدنا إبراهيم كان مؤمناً لكن أراد برؤية إحياء الموتى أن يزداد إيماناً " أحب أن يترقى من (علم اليقين) بذلك إلى (عين اليقين) وأن يرى ذلك مشاهدة " (١) ويصل إلى درجة طمأنينة القلب .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٨٩

وها هم حواريو عيسى يطلبون منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء – وهى غيب – لكى تطمئن قلوبهم ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ١١٢] فقد كان حواريو عيسى مؤمنين ولكنهم أرادوا زيادة إيمانهم باطلاعهم على شيء من الغيب وهو نزول مائدة من السماء يأكلون منها .

والمسلمون في غزوة بدر الذين أنزل الله عليهم خمسة آلف من الملائكة مردفين،وهم غيب ، لكى تطمئن قلوبهم ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران : ١٢٣- ١٢٦] .

والمسلمون في بدر كانوا أكثر الناس إيمانا فزادهم الله إيماناً وأنزل عليهم ملائكة من السماء لكى يصلوا إلى طمأنينة القلب وهى أعلى درجات الإيمان .

أما أمة محمد فقد خصها الله تعالى بميزة وهى الوصول إلى طمأنينة القلب لا بمعاينة غيب فقط إنما يكون أيضا بذكر الله تعالى .

﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨]

وهناك مرحلة أعلى من طمأنينة القلب وهى حق اليقين وهذه لا تكون إلا في الآخرة ودخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .

أنواع اليقين

اليَقِينُ : العِلْم وإزاحة الشك وتحقيقُ الأَمر ، وهو ثلاثة أنواع : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فإذا حدثك جماعة تثق في صدقهم وإيمانهم أن اليهودى جبان وأنه يفر من أمام الطفل الفلسطينى الممسك بحجر فيصير جبن اليهودي عندك علم يقين ، فإذا سافرت إلى فلسطين المحتلة ورأيت ذلك بنفسك فقد انتقلت من علم اليقين إلى عين اليقين فإذا أمسكت حجراً وجريت وراء يهودى وفر من أمامك فذاك حق اليقين." فعلم اليقين كعلمنا بدخول الجنة، فإذا رأيناها فهو عين اليقين، فإذا دخلناها فهو حق اليقين" (١)

حاسة اللمس

الجلد مركز الإحساس وهو من الحواس التي خلقها الله تعالى لتشعرنا بالحر والبرد والألم ، وما إلى ذلك " إن انتشار شبكة الأعصاب تحت الجلد شيء لا يكاد يصدق وتنتهى الألياف العصبية بجسيمات يختص كل نوع منها بنقل حس معين فهناك جسيمات الحر ، وأخرى تنقل البرد، وثالثة للمس والضغط ، ورابعة لحس الألم ، وخامسة تختص بنقل الحس العضلى . وأعصاب الجلد تنقل هذه الإشارات العصبية إلى مركز الإحساس بالمخ " (٢) فيترجمها ويصدر تعليماته للجسم باتخاذ اللازم حيال ما وصله من إشارات .

وجلد المؤمن يقشعر عندما يسمع كلام الله من الخشية والجلال ويلين من الرحمة والجمال .

---

(١) الأصفهانى "مفردات ألفاظ القرآن " .مادة يقن .

(٢) " الإعجاز العلمى في القرآن الكريم " C D إنتاج نيل سوفت .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣]

أما متبلدو الإحساس فلا يؤثر فيهم سماع القرآن كأنهم لا يسمعون ، فتشهد عليهم جلودهم يوم القيامة بما كانوا يعصون الله ويكفرون بآياته .

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت : ٢١]

ويصليهم الله ناراً تحرق هذه الجلود التي ما قشعرت من خشية الله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

[النساء : ٥٦]

والجلد كما قلنا هو مركز الإحساس بالألم فعندما يحترق ينقل الإحساس بالألم إلى المخ فيحس الإنسان بالألم والعذاب الذي ما بعده عذاب ، ولكن بعد حرق الجلد وتلف الأعصاب لا يعد يحس الإنسان بالألم والعذاب لذا فإن الله تعالى يبدل الذين كفروا جلودا غير جلودهم التي احترقت ليتجدد إحساسهم بعذاب الحريق وهكذا كلما احترقت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ولم يكن الناس يعرفون ، إلا حديثا ، أن الجلد هو مركز الإحساس وأن تلف أعصاب الجلد بمؤثرات كالحرق أو الجذام تفقد إحساس الإنسان بالألم ، والقرآن الكريم يذكر هذه الحقيقة العلمية قبل أن يصل إليها الإنسان بأكثر من أربعة عشر قرناً .

فتأمل دقة التعبير القرآنى تبديل جلود الكفار يوم القيامة لتجديد شعورهم بالعذاب (١)

---

(١) " الإعجاز العلمى في القرآن الكريم " C D إنتاج نيل سوفت .

ويخبرنا النبي أن جلود الكفار تكون غليظة جداً حتى يطول عذابهم و يشتد عذاب باحتراقها .

﴿ إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ﴾ [صحيح الترمذى والحاكم]

وينهى النبي ﷺ عن إيذاء جلد المؤمن حتى ولو بنخامة .

" إِذَا تَنَخَّمَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَلْيُغَيِّبْ نُخَامَتَهُ لاَ تُصِيبُ جِلْدَ مُؤْمِنٍ ، أَوْ ثَوْبَهُ فَتُؤْذِيَهُ. " [حديث حسن رواه أحمد والبيهقى والبزار]

ويحرم الإسلام لمس المرأة الأجنبية ومصافحتها منعاً للفتنة وإثارة الغرائز .

قال رسول الله ﷺ " لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له " [صحيح رواه الطبرانى والبيهقى]

ولما ضعف الإيمان في القلوب وطال الأمد على بُعْد المسلمين عن دينهم انتشرت فيهم أمراض الغرب كالخلوة بالأجنبيات ومصافحتهن ومعابثتهن وربما عناقهن وتقبيلهن وأن كل ذلك صار مقبولاً معتاداً لا حرج فيه فهى صديقته أو زميلته أو جارته أو مثل أخته فلا بأس من كل صور المعابثات والملامسات !!

حاسة الشم

خلق الله تعالى لنا الأنوف لنشم بها الطيب من الروائح فنتمتع به وندرك الخطر بها فنجتنبه و نعرف بها الخبيث من الروائح الكريهة فنزيله بالنظافة والغسل ، والإسلام يحرص على النظافة أيما حرص فقد جعلها عبادة فلا صلاة للجنب من غير غسل ولا لمحدث من غير

وضوء كما كان النبي يحب الطيب ويرغب فيه ، ويكره الخبيث من الرائحة وينهى عنه ، وكان النبي يقبل الرائحة الزكية إذا أهديت له .
فعن أنس أن النبي ﷺ كَانَ لاَ يَرُدُّ الطِّيبَ " [رواه البخارى]
وكان ينصح صحابته بقبول الطيب هدية .
عن أَبى هُرَيْرَةَ قالَ قالَ رَسُولُ الله ﷺ : " مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ طِيبٌ فَلاَ يَرُدَّهُ ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمَلِ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ " [صحيح مُسْلِمٌ]
وكان النبي يغتسل يوم الجعة ويتطيب .
وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال " غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ ، وَيَسْتَاكُ وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ "
[صحيح مسلم]
وقد نهى من أكل الثوم أو البصل أو الكراث أو غيرها مما له رائحة كريهة عن دخول المسجد قبل زوال رائحته .
فعن ابن عمر رَضِى اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ : " مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ (يعنى الثوم) فَلا يَقْرَبْنَا أَوْ لا يُصَلِّيَنَّ مَعَنَا " [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]
وشبه النبي ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك والجليس السوء بنافخ الكير فعن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ " إِنَّمَا مَثَلُ الجليس الصالحُ والجليسُ السوءِ كحامِلِ المسك ، ونافخِ الكِيْرِ ، فحاملُ المسك : إما أن يُحْذِيَكَ ، وإما أن تبتاع منه ، وإمَّا أن تجِدَ منه ريحا طيِّبة ، ونافخُ الكير : إما أن يَحرقَ ثِيَابَكَ ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثَة "
[متفق عليه]

حاسة التذوق

التذوق أحد الحواس التي مَنَّ الله تعالى على عباده بها لكى يتذوقوا به الحلال من الطعام والشراب ويستمتعوا به فإذا فقد الإنسان حاسة التذوق

تساوى عنده التفاح والليمون في الطعم ، كما يتساوى عنده الملح الأجاج والعذب الفرات .

والله تعالى يأمرنا بالتفكر في الطعام الذي نأكله حتى نشكر الله تعالى عليه ولا نجحده .

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس : ٢٤ – ٣٢]

فلو تتبعنا قصة رغيف الخبز مثلاً الذي نأكله والذي بعض الناس يبطره ، فإن الله تعالى سخر الشمس لترسل أشعتها إلى البحار والمحيطات ليتبخر الماء العذب من الماء المالح ، سبحان الله ، ثم يتكثف بخار الماء في طبقات الجو ويتجمع ، وتأتى الرياح لتسوقه إلى مساقط الأمطار ، سبحان الله ، حيث يتجمع المطر ويسير في أنهار ثم يسخر الله أناساً تزرع وأناساً تحصد وأناساً تطحن وأناساً تخبز ، سبحان الله ، ثم يأتى بعد ذلك من يقول ما هذا الرغيف البارد ويلقى به في القمامة فإن كان طازجا أكل بعضه ورمى الباقى ونسى أن هذا الرغيف الذي يبطره ندفع ثمنه الكثير من أموالنا وحريتنا من أجل الحصول عليه من أعدائنا ! بعدما أقفرت أرض مصر التي كانت يوما سلة غذاء العالم بأسره أن تزرع قمحه ! مصر التي أطعمت العالم كله أيام سيدنا يوسف وأنقذت العالم الإسلامى من الجوع والشدة في عام الرمادة تتسول الآن طعامها من الأمريكان !!

مصر سلة غلال العالم

إن الناس بالمدينة المنورة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر بن الخطاب في سنة الرمادة فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر: من

عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاص بن العاص، سلام! أما بعد فلعمرى يا عمرو! ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى، فيا غوثاه! ثم يا غوثاه ، يردده قوله. فكتب إليه عمرو بن العاص: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، أما بعد فيا لبيك! ثم يا لبيك! وقد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، فبعث عمرو إليه بعير عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا، فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع إلى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام، وبعث عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص يقسمونها على الناس، فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام أن يأكلوا الطعام وينحروا البعير فيأكلوا لحمه ويأتدموا شحمه ويحتذوا جلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام لما أرادوا من لحاف أو غيره، فوسع الله بذلك على الناس . فلما رأى ذلك عمر حمد الله وكتب إلى عمرو بن العاص يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر، فقدموا عليه، فقال عمر: يا عمرو! إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطعام وقد ألقى في روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسع عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد، ..وحفر الخليج الذي في جانب الفسطاط الذي يقال له: (خليج أمير المؤمنين) فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى (خليج أمير المؤمنين). ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل

فيه بعد عمر بن عبد العزيز ، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل [(١)]

ماذا جرى لمصر كثيرة الخير والطعام والتي فاض خيرها على من حولها ؟! ماذا جرى لمصر حتى لا يزرع أهلها ما يأكلون ؟!

أسباب الفقر وارتفاع الأسعار

أنا أقول لكم إن السبب ضعف الإيمان ، وضعف الهمة والخلود إلى الكسل ، وعدم الرضا ، والجشع والطمع .

فالفلاح الذي كانت أرضه هى عِرضه فرط في عرضه وهجر أرضه وهاجر ليعمل في بلاد الريال والدينار ، وترك أرضه لتسكنها الأفاعى والفئران ، وينعق فيها البوم والغربان ، وليعود بعد سنوات لا ليزرع أرضه فقد منَّ الله عليه بالمال بل ليجرف بعضها ويبنى على الجزء الباقى البيوت والعمارات التي يعلو أسطحها "الدش" الذي يظل يشاهد ما فيه من مفاسد حتى تطلع الشمس ، فهل مثل هذا يمكن أن يحمل بعد ذلك الفأس ؟!! وعندما يبدد ما جمع يعود للسفر مرة أخرى فإن لم يكن للسعودية أو الكويت فليكن للعراق أو ليبيا أو جزر القمر المهم أن يعمل خارج بلده ! ولذا نرى في مصر العجب نرى أن أخصب الأراضى الزراعية وهى التي على ضفاف النيل العظيم قد زُرِعت بالعمارات الشاهقة ، ولم يعد أمامنا إلا الصحراء الجرداء إذا أردنا أن نزرع !! ولتنفق المليارات لاستصلاح الصحراء عديمة الخصب وليكسب الناس المليارات من البناء على الأراضى الزراعية الخصبة ! ألم أقل لكم إنه ضعف الإيمان وضعف الهمة والخلود إلى الكسل والجشع . ولو قوى

---

(١) المتقى الهندى " كنز العمال " وقائع عام الرمادة .

الإيمان في النفوس لكان همّ كل واحد أن ينفع غيره ويصلح بلده فيفتح الله تعالى عليهم بركات من السماء والأرض لكن الناس كذبوا بتعاليم الله ورسوله إن لم يكن تكذيب إيمان و اعتقاد فعلى الأقل تكذيب تطبيق وانقياد .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦]

وهؤلاء الناس الذين لم يقنعوا بالمال الحلال القليل وطمعوا في الحرام الكثير فزرعوا أرضهم بالمخدرات أو جرفوها أو خالفوا أوامر أولى الأمر وبنوا عليها أو من تكسب بحاجة الناس وعوزهم فتاجر في صحة الناس وأرزاقهم أو باعهم ما يؤذيهم ويضرهم فلن يستمتع بالمال الحرام ولن يهنأ له بال لكن سيعيش تعيساً ويموت ملعوناً ويحشر أعمى .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه : ١٢٤ – ١٢٦]

﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ أى خالف أمرى وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ أى ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة. قال ابن عباس ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ قال: الشقاء. وعنه: إن قوماً ضلالاً أعرضوا

عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، فإذا كان العبد يكذب باللّه ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معشيته فذلك الضنك. وقال الضحّاك هو العمل السيء والرزق الخبيث"(١)

والمؤمن لا يأكل إلا حلالا ومن رزق حلال مخافة الله تعالى لذا فالله تعالى يطعمه من نعيم الجنة مما تشتهى الأنفس وتلذ العيون .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[الزخرف : ٦٩ – ٧٣]

والمؤمن ، وإن كان فقيراً ، لا يبخل بطعام أو شراب على الفقراء والمساكين واليتامى . لذا يوفيه الله تعالى جزاءه يوم القيامة فيقيه شر هذا اليوم ويدخله الجنة حيث النعيم المقيم .

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان : ٨ – ١٧]

والله تعالى يعطى الأجر على قدر العطاء وقدر حاجة الإنسان إلى ما يعطيه ، فإن الذين يطعمون الطعام أو ينفقون المال على شدة حاجتهم وحبهم له يضاعف الله لهم الجزاء أضعافا كثيرة .

---

(١) " تفسير ابن كثير " ج ٥ ص ٣٢٣ .

عن أبى هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ " سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ قَالُوا وَكَيْفَ قَالَ كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا "

[رواه النسائى وحسنه الألباني]

وفي هذا حث للناس لكل الناس على الصدقة ولا يزعم أحد أنه فقير وليس عليه صدقة فلينفق كل على قدر سعته وله عند الله الأجر العظيم.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

[الطلاق : ٧]

أما أولئك الذين طعموا خير الله وجحدوا شكره ، وتمتعوا بالنعم وكفروا بالمنعم فإن الله يطعمهم من شجرة الزقوم .

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاء الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾

[الدخان : ٤٤ –٥٠]

إن الذين أكلوا أموال الناس الطيبين بالباطل من اللصوص والنصابين، والذين سرقوا أموال الناس المحتاجين وهربوا خارج البلاد ليعيشوا منعمين، والذين تاجروا بصحة وأقوات ومصالح الناس المساكين ، هؤلاء الذين أعماهم الطمع والجشع وأنساهم أن هناك ربا قديرا فعالا لما يريد سوف يحاسبهم على ما ارتكبوه في حق البلاد والعباد فإن مصير أحدهم يوم القيامة شديد فيقول الله تعالى لملائكته .

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِؤُونَ﴾ [الحاقة : ٣٠ – ٣٧]

إن هؤلاء المنعمين بأموال الفقراء والمساكين ، هؤلاء الكاذبون المكذبون فإن الله يمهلهم قليلاً لعلهم يرجعون فإن استمرءوا الحرام واستحلوه وضيقوا على الفقير واستذلوه فإن الله تعالى سيذيقهم عذابا أليما بقدر ما أذاقوا الناس الذل والهوان .

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل : ١١]

وكثير من الناس مأكله من حرام ومشربه من حرام غذِّيَ من حرام ويتعجب من عدم استجابة الله دعاءه !

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ " [صحيح مسلم]

لقد عرَّف الله تعالى الذين يكذبون بيوم الدين فقال :

﴿أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون : ١ –٣]

فالذي يأكل مال اليتم ويقهره ويتاجر في أقوات الناس فيجوع الفقراء والمساكين ويذل المحتاجين فهذا هو الذي يكذب بيوم الدين إذ لو كان مؤمنا بالميعاد والجزاء حقا ما فعل ذلك بعباد الله تعالى .

ولقد توعَّد الله تعالى الذين يؤكلون أموال اليتامى ظلماً بعذاب السعير، فما بالك بمن أكل أموال شعب ظلماً وعدواناً !

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء : ١٠]

وكما أن الصدقة يتضاعف ثوابها في يوم ذى مسغبة (مجاعة) يشتهى فيه الطعام ، فإن العذاب يتضاعف لمن يستغل حاجة الناس في وقت الشدة .. في وقت يشح فيه الطعام ؛ فيحتكر السلع ويرفع أسعارها؛ ليضاعف مكسبه .

هؤلاء الظالمون الذين شبعوا من تجويع الناس .. والذين اغتنوا من إفقارهم فإن هذه البطون التي أتخمت بالمال الحرام سوف تمتلئ من شجرة الزقوم .

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٢ – ٦٨]

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة : ٥٣ – ٥٦]

إن الذين أطعموا الناس طعاماً فاسداً واستوردوا لهم سموماً في شكل أغذية سوف يسقون من عين آنية ولن يكون لهم طعام إلا من ضريع لا

يسمن ولا يغنى من جوع . ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية : ٥-٧]

وكذلك من كتم الحق مختاراً ونافق أهل الباطل سراً وجهاراً من أجل منصب أو مال ، أو من أباحوا الحرام من أجل هوى في النفس أو من أجل عَرَض من أعراض الدنيا كمن قالوا أن الرقص الداعر فن ، وأن عرى النساء تقدم ، وأن التمسك بالدين الصحيح تخلف ،وأن أكل أموال الناس بالباطل شطارة ، فإن ما أكله هؤلاء من مال حرام سوف يتحول إلى نار تحرق أحشاءهم يوم القيامة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة : ١٧٤]

وهذه الآية وإن كانت في أحباراليهود فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك بسبب دنيا يصيبها .. وفي ذكر البطون أيضاً تنبيه على جشعهم وأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا خطر له. ومعنى "إلا النار" أى إنه حرام يعذبهم اللّه عليه بالنار، فسمى ما أكلوه من الرشاء ناراً لأنه يؤديهم إلى النار .(١)

أما المؤمنون الذين اتقوا الله في عباده فأطعموا الجائع وكسوا العارى ورحموا الضعيف و أغنوا الفقير وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الجنة

﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد:١٤ – ١٨]

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٣٥ .

فالـذين يرحمـون عبـاد الله يـرحمهم الله والـذي يـرحم مـن فـي الأرض يرحمه من في السماء ، أما من جوَّع الأكباد وظلم العباد فلن يرحمهم من في السماء .

" الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِى الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ " [صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذى]

إن هؤلاء المؤمنين الرحماء بعباد الله تعالى الذين قضوا حوائج الناس وأعانوهم في البأساء والضراء في الجنات يتنعمون تظهر على وجوههم مخايل النعمة ويشربون من خمر الجنة .

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ : " أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِناً شَرْبَةً عَلَى ظَمَإٍ سَقَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِناً عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِناً ثَوْباً عَلَى عُرْىٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ "(١)

هـؤلاء هـم الأبـرار الـذين ذاقـوا طعـم الإيمـان واتبعـوا أوامـر الـرحمن وتمسكوا بشريعة الإسلام وتأسوا بالمصطفي خير الأنام .

"ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً "
[صحيح مسلم]

ويعلمنا الرسول الكريم ﷺ أن نكون مداومين على ذكر الله تعالى حتى يبارك الله تعالى في مطعمنا ومشربنا ويجنبا الشيطان .

" إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لا مَبِيتَ لَكُمْ وَلا عَشَاءَ وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ"
[صحيح مسلم]

---

(١) رواه أحمد عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً وروي موقوفاً وهو الصحيح .

كما يعلمنا النبي عدم بطر النعمة ووجوب شكر الله عليها .

أن رسول الله ﷺ قال " إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللُّقْمَةُ فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا وَلا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ " [صحيح مسلم]

إن كثيراً من الناس ترمى أضعاف ما تأكل فكل رغيف أخذت منه لقمة ألقى في القمامة ، وكل طعام قد غمست فيه لقمة القى في الحمام، في الوقت الذي يشتهى فيه الناس رائحة الطعام ويتقاسمون كسر الخبز.

***

حكمة الله تعالى في خلق الدوافع الفسيولوجية

ومن حكمة الله تعالى أن خلق في الإنسان دوافع فطرية – فسيولوجية – تحفظ له حياته ومن هذه الدوافع :

الحاجة إلى الطعام والشراب ، وإخراج الفضلات ، والنوم ، والجنس ، والراحة، والبعد عن الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة ... وإن عدم إشباع أى من هذه الدوافع كفيل بهلاك الإنسان ، ولولا الإحساس بالشبع والرى والتعب .. لمات الإنسان من كثرة الطعام والشراب وكثرة العمل ، ولقد وضح الله تعالى الطريق القويم لإشباع هذه الدوافع ذلك الإشباع الذي يضمن الإبقاء على حياة الإنسان وصحته وراحته وبقاء نوعه وسوف نتناول أهم هذه الدوافع ونبين كيف أشبع الله تعالى هذه الدوافع دون إفراط أو تفريط وهذا هو منهج الإسلام الوسطى الواقعى .

منهج الإسلام في الطعام والشراب

بين الله تعالى للإنسان كيفية المحافظة على جسمه في المأكل والمشرب فقال تعالى : ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١]

قال ابن عباس: أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. فأما ما تدعو الحاجة إليه، وهو ما سد الجوعة وسكن الظمأ، فمندوب إليه عقلاً وشرعاً، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس؛ ولذلك ورد الشرع بالنهى عن الوصال؛ لأنه يضعف الجسد ويميت النفس، ويضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرع وتدفعه العقل .

وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد . ثم قيل: في قلة الأكل منافع كثيرة؛ منها أن يكون الرجل أصح جسماً وأجود حفظاً وأزكى فهماً وأقل نوماً وأخف نفساً. وفي كثرة الأكل كظ المعدة ونتن التخمة، ويتولد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل.

وقال بعض الحكماء: أكبر الدواء تقدير الغذاء. وقد بين النبي ﷺ هذا المعنى بياناً شافياً يغنى عن كلام الأطباء فقال: مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاء شَرّاً مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ (لُقَيْمات) يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فإنْ كانَ لا مَحالةَ فثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسه " [صحيح الترمذى]

قال أحد علماء المسلمين تعليقاً على هذا الحديث الشريف : " لو سمع بقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة " ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان . فقال له على : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال قوله عز وجل: "وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا". فقال النصرانى: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال على: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال: (المعدة بيت الأدواء والحمية[١] رأس كل دواء وأعط كل جسد ما عودته). فقال النصرانى: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا. [٢]

---

(١) الحمية : هى منع المريض مما يضره ، " والحَمِي، كغَنِي: المريضُ المَمْنوعُ مما يَضُرُّهُ، " القاموس المحيط مادة حمى .

(٢) تفسير القرطبى ج ٧ ص ١٩٢ .

حاجة الجسم إلى الراحة

أما عن دافع الراحة : فلقد حرص الإسلام على عدم الإفراط في إنهاك الجسم، وأمر بوجوب إعطائه قسطه من الراحة حتى يقوى على العمل والعبادة .

يقول تعالى:﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه : ١-٣]

وجاء فس سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النبي ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً أي ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك في العبادة وتذيقها المشقة الفادحة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة . (١)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال لى رسول الله ﷺ :

" أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ " ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : "فَلا تَفْعَلْ ، صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا " [متفق عليه]

غريزة النوم

غريزة النوم التي تريح الجسم ولولاها لظللنا نعمل ونعمل حتى نموت من فرط التعب فهى وغريزة التعب والحاجة إلى الراحة مما يحفظ على الإنسان حياته .

فجعل الله تعالى للإنسان النهار مبصراً ؛ ليعمل فيه ويكد ، وجعل له الله الليل مظلما ؛ لينام فيه ويرتاح و لم يكلفه أثناء الليل بعبادة

---

(١) تفسير القرطبى ج ١١ ص ١٦٨ .

مفروضة فالصلاة المفروضة تبدأ مع طلوع الصبح وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وتنتهى مع زوال الشفق والدخول في الليل ، وكذلك الصوم وغيرهما .

﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٦٧]

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَآ آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء : ١٢]

الغريزة الجنسية

أما عن دافع الجنس فقد وضع الله تعالى له نظاماً دقيقاً بالغ الدقيقة يشبع به هذا الدافع الذي يحفظ الجنس البشرى فلم يترك الله تعالى العنان للغرائز والشهوات الجنسية تنداح بلا قانون يحكمها ويصون الأعراض ، والنسل ، والأنساب ، والأسرة كما فعلت الإباحية الفارسية ، والرومانية قديماً ، وكما تفعل الدول الغربية حديثا . مما ترتب عليه اختلاط الأنساب ، وانهيار نظام الأسرة ، وانتشار الأمراض الفتاكة كالزهرى ، والسيلان ، والإيدز .

ولقد قضت حكمة الله تعالى أن يعم الناس بالبلاء إذا شاعت فيهم الفاحشة .

" إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله "

[صحيح الطبرانى والحاكم]

ويقول أبو بكر في أول خطبة له بعد بيعته " ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء " (١)

---

(١) سيرة ابن هشام " باب خطبة أبى بكر بعد البيعة .

ولقد حذَّر الله تعالى من يشيع الفاحشة ، كبائر الذنوب عموماً ، والزنا خصوصاً ، بعذابين : عذاباً في الدنيا وهو ضياع ملكهم ، وانهيار حضارتهم ، وعذاباً في الآخرة وهو جهنم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ في الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩]

والناظر في تاريخ الأمم والشعوب يجد أن أهم سمة من سمات الحضارات المتحللة والبائدة هى انتشار الفاحشة فيها .

" وَلاَ ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ ، إِلاَّ سَلَّطَ الله عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ "

[رواه الحاكم وصححه الألباني]

ويكون مقدمة فنائهم ظهور الأمراض التي لم تكن في أسلافهم .

" لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ "

[صحيح ابن ماجة والبيهقى]

ولقد صدق رسول الله ﷺ فظهر مرض الإيدز (فقد المناعة) الناتج عن شيوع الزنا وهو مرض جديد لم تعرفه الأمم السالفة وهو يهدد بالموت ملايين البشر كل عام وليس له علاج حتى الآن .

ولأحمد من حديث عائشة مرفوعاً " لا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا فَإِذَا فَشَا فِيهِمْ وَلَدُ الزِّنَا فَيُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعِقَابٍ " [أحمد بإسناد حسن]

كيف نظم الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة ؟

وشاءت حكمة الله تعالى ومنهجه القويم أن يكون الزواج على سنة الله ورسوله ﷺ هو البديل الشرعى للعلاقة بين الرجل والمرأة فلم يكبت

الإسلام فطرة الله التي فطر الناس عليها كما لم يترك لها العنان ترتع كيفما تشاء وهذه هى وسطية الإسلام وواقعيته التي راعت طبيعة الناس وواقعهم لذا شرع الله الزواج عصمة للإنسان من فتنة النساء فإذا أحب رجل امرأة تحل له فعليه بالزواج منها فالنبي ﷺ " " لم ير للمتحابين مثل النكاح " [صحيح ابن ماجه والحاكم]

وحث النبي ﷺ الشباب على التبكير بالزواج ؛ فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . " يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ " [متفق عليه]

وأمر أولياء أمور المسلمين أن ييسروا الزواج لمن لا زوج له .

﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور : ٣٢]

أى زوجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف والخطاب للأولياء .

ونصح ﷺ المقدمين على الزواج أن يختاروا ذوات الخلق والدين .

" تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ " [متفق عليه]

وبين النبي ﷺ مزايا هذه المرأة الصالحة ذات الدين فيقول : " أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُهُ الْمَرْءُ ؟ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ "

[صحيح أبي داود والبيهقى والحاكم)

وبعض الناس لا يعنيه من المرأة إلا حسنها فقط ، وكثيراً ما يكون جمال المرأة سبباً في فساد أخلاقها ، وطمع الناس فيها وهلاكها، كما

أن من الناس من يتزوج بالمرأة لمالها فقط ؛ وكثيراً ما يكون غنى الزوجة سبباً في تكبرها وتعاليها ، وظلمها لزوجها ، وعدم القيام بواجباتها نحوه ، وإنما الصفة الأساسية التي يجب أن تختار على أساسها الزوجة هى الصلاح والتقوى .

كما أمر النبي ولى المرأة أن يزوجها لذى الخلق والدين ، وإن كان فقيراً ، الذي إذا أحبها أكرمها ، وإذا كرهها لم يظلمها .

" إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ " [صحيح الترمذى وابن ماجه والحاكم]

وجعل النبي ﷺ أعظم النساء بركة أيسرهن مهراً . " إِنَّ أَعْظَمَ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرَهُنَّ صَدَاقًا " [صحيح أحمد والحاكم والبيهقى]

عَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَطَبَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : " أَلا لا تُغَالُوا فِي صُدُقِ النِّسَاءِ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ كَانَ أَوْلاكُمْ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَصْدَقَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ وَلا أُصْدِقَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِهِ فَوْقَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً أَلا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُغَالِي بِصَدَاقِ امْرَأَتِهِ حَتَّى يَبْقَى لَهَا فِي نَفْسِهِ عَدَاوَةٌ " [صحيح الحاكم والدارمي]

وإليك هذه القصة العجيبة التي ذكرت في الصحيحين والتي تبين كيف يسر الإسلام الصداق ، ودعا إلى عدم المغالاة في المهور .

" أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ جِئْتُ لأَهَبَ لَكَ نَفْسِي فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ ثُمَّ طَأْطَأَ رَأْسَهُ فَلَمَّا رَأَتْ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا فَقَالَ

هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ قَالَ لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا قَالَ انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي قَالَ سَهْلٌ مَا لَهُ رِدَاءٌ فَلَهَا نِصْفُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى طَالَ مَجْلِسُهُ ثُمَّ قَامَ فَرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُوَلِّيًا فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ فَلَمَّا جَاءَ قَالَ مَاذَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ قَالَ مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا عَدَّدَهَا قَالَ أَتَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ قَالَ نَعَمْ قَالَ اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ " [متفق عليه]

أبعد ذلك يسر في الزواج ؟!

لكن غالى الناس في المهور في زماننا هذا وأكثروا من الكماليات فعنس الرجال والنساء .

ولقد جعل النبي ﷺ أن سبب فساد الأرض وكثرة الفتن فيها هو عدم تزويج الشباب ذوى الصلاح والتقوى ، فتأخير سن الزواج برفع تكاليفه ، وبعدم تيسيره ، فتنة كبيرة يترتب عليها انتشار الفاحشة ، وهو الحادث في أيامنا هذه فقد كان تعسير الزواج ، والمغالاة في المهور ، والإصرار على الكثير من الكماليات سبباً في عنوسة كثير من الفتيات والرجال ، أو تأخر سن زواجهم ؛ وترتب على ذلك الفساد الكبير الذي أخبر عنه النبي ﷺ .

خاصة وأن الإعلام الفاسد ، والأغانى المصورة الخليعة ، والأفلام الداعرة ، وتبرج النساء والفتيات وخلاعتهن و.. جعل القابض على دينه منهم كالقابض على الجمر .

فأجهزة الإعلام بما تعرضه من الأفلام الساقطة تدمر الأخلاق ، وتخرب العقول، وتفسد الذوق .

نعود إلى منهج الإسلام القويم في العلاقة بين الرجل والمرأة قلنا لقد أمر نبى الإسلام ﷺ الشباب بالتبكير بالزواج ، ونصحهم بأن يظفروا بذات الدين ، كما ، أمر أولياء أمور البنات أن يختاروا الشاب ذا الخلق والدين زوجاً ، وأن ييسروا عليه مؤنة الزواج .

﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]

فإن لم يكن الشاب قادراً على الزواج فليستعفف حتى يغنيه الله من فضله .

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]

فأمر الله تعالى بهذه الآية كل من تعذر عليه النكاح ولا يجده بأى وجه أن يستعفف. ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال وعد بالإغناء من فضله؛ فيرزقه ما يتزوج به ، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه شهوة النساء.

عن أبى هريرة عن النبيﷺ قال:

" ثَلاَثَةٌ كُلُّهُمْ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُ الْمُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالنَّاكِحُ يُرِيدُ الْعَفَافَ وَالْمُكَاتَبُ يُرِيدُ الأَدَاءَ " [حديث حسن رواه أحمد وابن ماجه]

والصوم من وسائل العفاف لأنه يحمى الصائم من النظر إلى المحرمات فضلاً عن ارتكابها حتى لا يفسد صومه ، كما أن الجوع والعطش يقلل من الشهوة ويهذب النفس ، ويملأ القلب بالتقوى وخشية الله تعالى ، ويضيق مجارى الشيطان .

" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ "

[متفق عليه]

وحرَّم الإسلام كل ما من شأنه أن يدعو إلى إثارة الغريزة وإشاعة الفاحشة .

فحرم الخلوة غير المأمونة بين الرجل والمرأة حتى ولو كان الحمو ، الحمو أقارب الزوج من غير المحارم كالأخ والعم والخال وأبنائهم، لما يترتب عليها ما لا يحمد عقباه .

فعن ابن عباس رَضِي اللَّهُ عَنهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: " لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ وَلا تُسَافِرْ الْمَرْأَةُ إِلا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا قَالَ انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ " [مُتَّفَقٌ عَلَيهِ]

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: " قَالَ إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ : " الْحَمْوُ الْمَوْتُ " (متفق عليه)

ويشرح البخاري " الحمو الموت " فيقول : أى لقاؤه الهلاك، لأن دخوله أخطر من دخول الأجنبى وأقرب إلى وقوع الجريمة، لأن الناس يتساهلون بخلطة الرجل بزوجة أخيه والخلوة بها، فيدخل بدون نكير فيكون الشر منه أكثر والفتنة به أشد"(١)

" ألا لا يَخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلاَّ كانَ ثالثهُما الشَّيطانُ "

[صحيح رواه أحمد والترمذى والحاكم]

---

(١) صحيح البخارى .

كما أمر الله تعالى بغض البصر .

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور : ٣٠]

وليس غض البصر قاصراً على الرجال فحسب بل مأمورة به النساء أيضا .

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

[النور: ٣١]

فغض البصر عن النظر للحرام كما يظهر من الآية يحفظ الفرج من الزنا .

والحرام المأمورون بغض النظر عنه يشمل فيما يشمل على النظر بشهوة إلى النساء ، وعلى مشاهدة الرقص المثير ، والأفلام الجنسية ، أو الصور الخليعة ، وقراءة الأدب الماجن الإباحى ، وبالجملة النظر إلى كل ما يثير للغرائز الجنسية ، ويؤجج سعار الشهوات .

كما حرم الإسلام لصيانة المجتمع تبرج النساء وإظهار زينتها بوضع مساحيق الوجه ، والجفون ، وطلاء الشفاه والأظافر ، ووصل الشعر ولبس الباروكة وتركيب الرموش... فقال تعالى:﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣]

والتَّبرُّج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال الأجانب .كما أوجب الله تعالى على الفتاة إذا بلغت المحيض أن ترتدى الحجاب .

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور : ٣١]

شروط الحجاب الشرعي

وكثير من الفتيات لا يعرفن من الحجاب إلا غطاء الرأس وهذا جهل فاضح فالحجاب الشرعى يشمل خمس صفات هى :

١- ستر جميع البدن إلا الوجه والكفين ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور : ٣١]

وأكثر أهل التفسير يفسرون الاستثناء بالوجه والكفين كما سبق وأشرنا وهو رأى جمهور الفقهاء .

٢- ألا يكون ضيقاً مجسماً للجسم بل يجب أن يكون واسعاً فضفاضاً.

٣-ألا يكون شفافا يشف عما تحته بل يجب أن يكون ساتراً .

قال رسول الله ﷺ : " صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلاَتٌ مُمِيلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَمْثَالِ أَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا " [صحيح مسلم]

٤-ألا يشبه ملابس الرجال فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ " [صحيح البخارى]

٥-ألا يكون معطرا لقول النبي " أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ " [صحيح أحمد والنسائى والحاكم]

بعض المحرمات الخاصة بالنساء

حرَّم الإسلام على المرأة أن تضرب برجلها إذا مشت لتسمع صوت خلخالها؛ فإسماع صوت الزينة كإبداء الزينة وأشد .

﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور : ٣١]

كما حرَّم عليهن تزجيج الحواجب ، ووصل الشعر ، ورسم الوشم ؛ لأن هذه الأمور مما يثير الرجال ويحرك الغرائز .

عن ابنِ عُمَرَ أنّ النبي ﷺ قالَ : " لَعَنَ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ " [صحيح مسلم]

(الواصلة) أى التي تصل الشعر، سواء أكان لنفسها أم لغيرها (والمستوصلة) أى التي تطلب وصل شعرها .

وعن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : " لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ " [متفق عليه]

والوشم يكون في اليدين، وهو أن يغرز ظهر كف المرأة ومعصمها بإبرة ثم يحشى بالكحل فيخضر. والمستوشمة التي يفعل ذلك بها. والمتنمصات جمع متنمصة وهى التي تقلع الشعر من وجهها بالمنماص، والمتفلجات جمع متفلجة، وهى التي تفعل الفلج في أسنانها. "الواشرات"، وهى جمع واشرة، وهى التي تشر أسنانها؛ أى تصنع فيها أشراً، وهى التحزيزات التي تكون في أسنان الشبان؛ تفعل ذلك المرأة الكبيرة تشبها بالشابة. وهذه الأمور كلها قد شهدت الأحاديث بلعن فاعلها وأنها من الكبائر. " [١]

كما حرَّمت الشريعة الإسلامية على النساء التبختر والتكسر والتثنى في المشى الذي يكون بتحريك جسدها ومواطن الفتنة فيه .

" وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلاَتٌ مُمِيلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَمْثَالِ أَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا " [صحيح مسلم]

---

(١) تفسير القرطبى ج ٥ ص ٣٩٣ .

(مائلات) : متبخترات في مشيتهن .(مميلات) : أكتافهن وأكفالهن .. أو مائلات يتمشطن المشطة الميلاء، مشطة البغايا، مميلات يرغبن غيرهن في تلك المشطة ويفعلنها بهن. أو مائلات للرجال، مميلات قلوبهم إلى الفساد بهن بما يبدين من زينتهن . "رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة": أى يعظمن رؤوسهن بالخُمُر والعمائم يلففنها على رؤوسهن (أو بتسريحات الشعر التي ظهرت في قرننا) حتى تشبه أسنمة الإبل (أى القمم على ظهورها. وهذا حكمه حكم التجمل العادى، فالمقصود هنا اللاتى يبدين ذلك لمن لا يحل له رؤيته " (١)

كل ذلك من أجل سلامة المجتمع وصيانة العفة فيه .

حرَّم الإسلام على المرأة الخضوع بالقول ، وهو التكسر في الكلام ، وأباح لها أن تتكلم بالمعروف وبطريقة غير مثيرة .

﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب : ٣٢]

إذن الإسلام حل مشكلة الغريزة الجنسية كما لم يحلها قانون وضعى ولا فكر بشرى فلم يكبتها ، كما لم يترك لها العنان إنما وضع لها ما يجعلها تؤدى الدور الذي خلقها الله تعالى من أجله وهو الترغيب في النكاح من أجل بقاء النوع وتعمير الكون ولقد تمثل هذا الحل كما بينا في :

١- الدعوة إلى الزواج المبكر .
٢-تيسير الزواج على الشباب .
٣-أمر المرأة بالحجاب .

---

(١) الإمام السيوطى " الجامع الصغير " باب الصاد .

ومن لم يستطع الزواج فقد أمره الله بالعفاف عن الحرام والسعى على رزقه ووعده الله بأن يرزقه الله تعالى بما يعينه على الزواج .

ثم جعل الله تعالى مجموعة من الضمانات لصيانة المجتمع :

١- تحريم الخلوة غير الآمنة بين الرجل والمرأة .

٢- تحريم النظر إلى كل ما يثير الشهوة على الرجال والنساء .

٣- حرَّم على النساء جملة الأشياء التي من شانها إثارة الرجال وإشعال سعار الغريزة الجنسية فيهم منها ، التبرج ، والخضوع بالقول ، والتكسر والتثنى في المشى ، لبس الخلاخيل ، والتعطر ، والوشم ، و تزجيج الحواجب ، ووضع المساحيق (المكياج)... وكل ما من شأنه إثارة الرجال .

وهذا الحل الأمثل للعلاقة بين الرجل والمرأة يأخذ به كل من صلحت فطرته وزكا قلبه وصح عقله أما أولئك ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم : ٣]

أولئك الذين يأبون إلا الفساد في الأرض وانتهاك الأعراض ، أولئك الذين تسيرهم شهواتهم ، ويسخرهم الشيطان لمعصية الله وانتهاك حرماته فهؤلاء لابد من أن يبتروا من المجتمع لكى يصح ؛ فوجودهم مفسدة له.

لذا جعل الله تعالى عقوبة الزانى المحصن ، المتزوج ، الرجم حتى الموت لأنه عَطَن وعَفَن لو ترك لأفسد بقية الثمار الصحيحة ومن رحمة الله تعالى أن فرق بين الزانى المتزوج الذي لا عذر له في الزنا بعدما تيسر له سبيل الزواج ، وبين الأعزب الذي لم يسبق له الزواج و لم يطفئ ثورة شهوته بزواج شرعى فجعل عقوبة الزانى الأعزب الجلد مائة جلدة ولا تقبل له شهادة ويغرب عن وطنه عاماً .

وأما الزانى المحصن فإنه يرجم بالحجارة حتى يموت ولقد رجم النبي ﷺ ماعز بن مالك الأسلمى، ورجم الغامدية ، ورجم اليهودية ، ورجم غير هؤلاء ، ورجم المسلمون بعده وإن كان غير محصن، فإنه يجلد مائة جلدة بكتاب الله، ويغرب عاماً بسنة رسول الله ﷺ .

* * *

العقوبات على الجرائم الأخلاقية

إن أي قانون وضعي لا يترتب على احترامه أو الخروج عليه جزاء قانون لا قيمة له فالشعور بالمتعة نتيجة لالتزام بالقانون – إن كان للالتزام به متعة – والشعور بالألم، إن نتج عن الخروج عليه ندم ، لا يكفيان لالتزام الناس بالقانون .

وإن كان الأمر بالنسبة للقوانين الإلهية : أوامر الله تعالى ونواهيه مختلف عن القوانين الوضعية فإن طاعة الله والالتزام بأوامره تسعد المؤمن ، والوقوع في المعصية تسوؤه " إذا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ ، وساءَتْكَ سَيِّئَتُكَ ، فَأنتَ مُؤْمِنٌ " [صححه الألباني] .

ولكن الله تعالى لم يترك الالتزام بنظامه الأخلاقي لضمائر الناس وأهوائهم في الدنيا وأخَّر لهم الجزاء في الآخر إنما الله تعالى رتَّب عقوبات دنيوية وأخرى أخروية للمخالفين لأخلاق الإسلام فقد جعل هناك عقوبات دنيوية حتى لا تشيع الفاحشة فمن أمن العقاب أساء الأدب فجعل الله تعالى بعض العقوبات على بعض الجرائم الأخلاقية التي لو تركت بغير عقاب رادع في الدنيا تفشَّت وأفسدت المجتمع كله ومن تلك العقوبات الدنيوية الحدود التي نص عليها الإسلام وحدد لها نوع العقوبة ومقدارها ، أما الجرائم الأخلاقية الأخرى غير المنصوص عليها في الحدود فقد ترك الإسلام لولي الأمر تحديد العقوبات المناسبة لها فيما يسمى في الفقه بالتعزيرات .

الحدود

تعريفها: الحدود جمع حد ، وهو : الشيء الحاجز بين شيئين.

وفي الفقه عقوبة مقدرة وجبت على الجاني ، وحدود الله تعالى : ما حده بأوامره ونواهيه . [1]

وسميت عقوبات المعاصي الأخلاقية حدوداً ؛ لأنها في الغالب تمنع العاصي من العود إلى تلك المعصية التي حُدَّ لأجلها .

وقد قرَّر الإسلام : الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة تسمى " جرائم الحدود " وهذه الجرائم هي : " الزنا، والقذف، والسرقة، والسُّكْر، والمحاربة، والرِّدة، والبغي (القتل) ".

فعلى من ارتكب جريمة من هذه الجرائم عقوبة محددة قررها الشارع .

فعقوبة جريمة الزنا، الجلد للبكر (العذراء)، والرجم للثيِّب (غير البكر).

يقول تعالى :﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ " [صحيح مسلم]

وعقوبة جريمة القذف ثمانون جلدة . يقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٤]

وعقوبة جريمة السرقة قطع اليد

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٨]

---

(1) مجمع اللغة العربية " المعجم الوجيز " .

وعقوبة جريمة السُّكر (شرب الخمر)، ثمانون جلدة ، أو أربعون على خلاف بين المذاهب .

وعقوبة الرِّدة القتل، لقول رسول الله ﷺ " مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ " [رواه أحمد والنسائي والبيهقي] .

وعقوبة جريمة البغي القتل .

لقول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]

ولقول رسول الله ﷺ : " سَتَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ جَمْعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ "[صحيح النسائي] .

وعقوبة جريمة الفساد في الأرض: القتل، أو الصلب، أو النفي، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، يقول الله سبحانه : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٣] .

عدالة عقوبات الإسلام على الجرائم الخلقية

وهذه العقوبات بجانب كونها محققة للمصالح العامة وحافظة للأمن العام فهي عقوبات عادلة غاية العدل .

إذ إن الزنا جريمة من أفحش الجرائم وأبشعها ، وعدوان على الخلق والشرف والكرامة ، ومقوض لنظام الأسر والبيوت. وعقوبة الزنا عقوبة قصد بها الزجر والردع والإرهاب أكثر مما قصد بها التنفيذ والفعل .

وقذف المحصنين والمحصنات من الجرائم التي تحل روابط الأسرة وتفرق بين الرجل وزوجه، وتهدم أركان البيت . فتقرير جلد مقترف هذه

الجريمة ثمانين جلدة بعد عجزه عن الإتيان بأربعة شهداء يؤيدونه فيما يقذف به، غاية في الحكمة وفي رعاية المصلحة، كيلا تخدش كرامة إنسان أو يجرح في سمعته .

والسرقة ما هي إلا اعتداء على أموال الناس وعبث بها. والأموال أحب الأشياء إلى النفوس. فتقرير عقوبة القطع لمرتكب هذه الجريمة حتى يكف غيره عن اقتراف جريمة السرقة، فيأمن كل فرد على ماله، ويطمئن على أحب الأشياء لديه وأعزها على نفسه.

والمحاربون الساعون في الأرض بالفساد المضربون لنيران الفتن، المزعجون للأمن، المثيرون للاضطرابات، العاملون على قلب النظم القائمة، لا أقل من أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض .

والخمر تُفْقِد شاربها عقله ورشده، وإذا فقد الإنسان رشده وعقله ارتكب كل حماقة وفحش، فإذا جلد كان جلده مانعاً له من المعاودة من جانب، ورادعاً لغيره من اقتراف مثل جريمته من جانب آخر.

وجوب إقامة الحدود:

إقامة الحدود فيها نفع للناس، لأنها تمنع الجرائم، وتردع، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك الحرمات، وتحقق الأمن لكل فرد، على نفسه، وعرضه وماله، وسمعته، وحريته، وكرامته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا " [صحيح ابن ماجة والنسائي] .

إن الرحمة بالمجتمع أهم بكثير من الرحمة بالفرد . لذا يَحْرُم أن يشفع أحد أو يعمل على أن يُعَطِّل حداً من حدود الله، لأن في ذلك تفويتاً

لمصلحة محققة، وإغراء بارتكاب الجنايات، ورضا بإفلات المجرم من تبعات جرمه .

وهذا بعد أن يصل الأمر إلى الحاكم، لأن الشفاعة حينئذ تصرف الحاكم عن وظيفته الأولى، وتفتح الباب لتعطيل الحدود .

أما قبل الوصول إلى الحاكم، فلا بأس من التَستُّر على الجاني، والشفاعة عنده دون تضييع لحقوق العباد أو استمراء للجريمة .

أخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم وصححه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال : " تَعَافُوا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِى مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ " [صحيح النسائي] .

سقوط الحدود بالشبهات:

الحد عقوبة من العقوبات التي توقع ضرراً في جسد الجاني وسمعته، ولا يحل استباحة حرمة أحد، أو إيلامه إلا بالحق، ولا يثبت هذا الحق إلا بالدليل الذي لا يتطرق إليه الشك، فإذا تطرق إليه الشك كان ذلك مانعاً من اليقين الذي تتبني عليه الأحكام.

ومن أجل هذا كانت التُّهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها، لأنها مظنة الخطأ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ " اِدْفَعُوا اَلْحُدُودَ، مَا وَجَدْتُمْ لَهَا مَدْفَعًا " [ضعيف ابن ماجة] .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : " ادرءُوا الْحُدُود عَن الْمُسلمين مَا اسْتَطَعْتُم فَإِن كَانَ لكم مخرج فَخلوا سَبيله فَإِن الإِمَام إِنَّ يُخْطِئ فِي الْعَفو خَيْرٌ مِنْ أَن يُخْطِئ فِي الْعقُوبَة " [رواه الحاكم وصححه] (1)

---

(1) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٣٥٧- ٣٦٠ بتصرف .

التعزير :

والمقصود به في الشرع : التأديب على ذنب لا حَدَّ فيه ولا كفَّارة .

أي أنه عقوبة تأديبية يفرضها الحاكم على جناية أو معصية لم يعين الشرع لها عقوبة، أو حدد لها عقوبة ولكن لم تتوفر فيها شروط التنفيذ مثل : سرقة مالا قطع فيه، وجناية لا قصاص فيها، وإتيان المرأة المرأة.

ذلك أن المعاصي ثلاثة أقسام :

١ – نوع فيه حد، ولا كفارة فيه : وهي الحدود التي تقدم ذكرها.

٢ – ونوع فيه كفارة، ولا حد فيه .

مثل: الجماع في نهار رمضان، والجماع في الإحرام .

٣ – ونوع لا كفارة فيه ولا حد، كالمعاصي التي تقدم ذكرها، فيجب فيها التعزير.

مشروعيته: والأصل في مشروعيته ما رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: " إن النبي ﷺ حَبَسَ فِي التُّهْمَةِ " [صححه الحاكم] .

وإنما كان هذا الحبس حبساً احتياطيّاً حتى تظهر الحقيقة .

فعن هانئ بن نيار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " لا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ ، إلا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَازِمٍ : لا يُجْلَدُ عَشْرَةَ أَسْوَاطٍ إلا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى " [متفق عليه]

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان يعزر ويؤدب، بحلق الرأس والنفي والضرب، كما كان يحرق حوانيت الخمارين، والقرية التي يباع فيها

الخمر. وحرق قصر سعد بن أبي وقاص بالكوفة، لما احتجب فيه عن الرعية . وقد اتخذ درة يضرب بها من يستحق الضرب، واتخذ داراً للسجن، وضرب النائحة حتى بدا شعرها .

وقال الأئمة الثلاثة – غير الشافعي – : إنه واجب . (١)

التعزير من حق الحاكم: والتعزير يتولاه الحاكم، لأن له الولاية العامة على المسلمين .

وفي سبل السلام: وليس التعزير لغير الإمام ، إلا لثلاثة :

١ – الأول الأب، فإن له تعزير ولده الصغير للتعليم، والزجر عن سيئ الأخلاق، والظاهر أن الأم في مسألة زمن الصبا، في كفالته، لها ذلك، والأمر بالصلاة، والضرب عليها، وليس للأب تعزير البالغ، وإن كان سفيهاً .

٢ – والثاني السيد، يعزر رقيقه (عَبْدَه) في حق نفسه، وفي حق الله تعالى، على الأصح.

٣ – والثالث الزوج، له تعزير زوجته في أمر النشوز، كما صرح به القرآن .

﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء : ٣٤] .

وكذلك يجوز للمعلم تأديب الصبيان .

بشرط ألا يسرف واحد منهم، ويزيد على ما يحصل به المقصود .

فإذا أسرف واحد منهم في التأديب كان متعدياً، وضمن بسبب تعديه ما أتلفه. (٢)

---

(1) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٥٨٩، ٥٩٠ بتصرف .

(2) سيد سابق " فقه السنة " ج ٢ ص ٥٩٣ بتصرف.

التوبة

والإسلام لا يغلق باب الخير والإصلاح أمام الإنسان المُخْطِئ إنما يفتح له باباً يرجع فيه عما ارتكب من إثم ، ويُكَفِّر فيه عما ارتكب من جرم ، ويصلح ما ارتكب من فساد فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ " كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ " [رواه الترمذي والحاكم وصححه]

والتوبة من خصائص الأخلاق الإسلامية ، لا تعرفها المذاهب الأخلاقية الأخرى – حتى المثالية منها – فيعرفها د. عبد الله دراز بأنها واجب جديد – فوق مستوى الندم – يفرضه علينا الشرع عن أي تقصير في الواجب .. ووظيفة التوبة وظيفة إصلاحية في الأخلاق الإسلامية . ودورها العدول السريع عن الذنب ثم إصلاح الماضي والتخطيط لمستقبل أفضل .. مع تكرار جهودنا بلا يأس – من أجل الإصلاح. [1]

شروط التوبة

كلمة التوبة كلمة عظيمة، لها مدلولات عميقة، لا كما يظنها الكثيرون، ألفاظ باللسان ثم الاستمرار على الذنب، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣] تجد أن التوبة هي أمر زائد على الاستغفار .

ولأن الأمر العظيم لابد له من شروط ، فقد ذكر العلماء شروطاً للتوبة مأخوذة من الآيات والأحاديث، وهذا ذكر بعضها:

الأول: الإقلاع عن الذنب فوراً .

---

(1) د. مصطفى بن محمد حلمي في تقديمه لكتاب " مختصر دستور الأخلاق " مرجع سابق .

الثاني: الندم على ما فات .

الثالث: العزم على عدم العودة .

الرابع: إرجاع حقوق من ظلمهم، أو طلب البراءة منهم .

وذكر بعض أهل العلم تفصيلات أخرى لشروط التوبة النصوح، نسوقها مع بعض الأمثلة :

الأول: أن يكون ترك الذنب لله لا لشيء آخر، كعدم القدرة عليه أو على معاودته، أو خوف كلام الناس مثلاً .

فلا يسمى تائباً من ترك الذنوب لأنها تؤثر على جاهه وسمعته بين الناس، أو ربما طرد من وظيفته .

ولا يسمى تائباً من ترك الذنوب لحفظ صحته وقوته، كمن ترك الزنا أو الفاحشة خشية الأمراض الفتاكة المعدية، أو أنها تضعف جسمه وذاكرته .

ولا يسمى تائباً من ترك أخذ الرشوة لأنه خشي أن يكون معطيها من هيئة مكافحة الرشوة مثلاً.

ولا يسمى تائباً من ترك شرب الخمر وتعاطي المخدرات لإفلاسه .

وقد وصف القرآن اللصوصية التي تستحق قطع اليد ؟ بأنها لصوصية الظلم والإفساد ؟ وقال في هذا السارق المعاقب: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٨ ، ٣٩] .

الحكمة من العقوبات الدنيوية على الجرائم الخلقية

الحد الذي شرعه الإسلام هو وقاية للجماعة العادلة المصلحة من ضراوة عضو فيها يقابل عدالتها بالظلم ويقابل إصلاحها بالفساد .

ذلك مثل نسوقه لنبين به أن الحدود على الجرائم الخلقية لم تشرع إكراهاً على الفضيلة وإلجاء للناس بطريق القسوة إلى اتخاذ المسلك الحسنة. فالطريقة المثلى لدى الإسلام هي خطاب القلب الإنساني واستثارة أشواقه الكامنة إلى السمو والكمال ورجعه إلى الله بارئه الأعلى.

بأسلوب من الإقناع والمحبة وتعليقه بالفضائل الجليلة على أنها الثمرة الطبيعية لهذا كله.. ويجب التحكم في ظروف البيئة التي تكتنف الإنسان حتى يُعين على إنضاج المواهب والسجايا الحسنة .

ولا حرج من خلع الطفيليات التي لا فائدة منها فنحن في حقول الزراعات المختلفة نوفر النماء للمحاصيل الرئيسية باقتلاع كثير من الحشائش والأعشاب وليست المحافظة على مصلحة الإنسانية العامة بأقل من ذلك خطرا فلا وجه استنكار الحدود التي أقرها الإسلام وسبقت بها التوراة واعتبرت شريعة الأديان السماوية عامة .

والإسلام يُحمل البيئة قسطاً كبيراً من تبعة التوجيه إلى الخير أو الشر وإشاعة الرذائل أو الفضائل. واتجاهه إلى تولى مقاليد الحكم يعود فيما يعود إليه من أسباب ؟ إلى الرغبة في تشكيل المجتمع على نحو يعين على العفاف والاستقامة .(١)

([1]) الشيخ محمد الغزالي " خلق المسلم " ص ٢١ .

جزاء الفاسق الذي أفلت من العقوبة

يقول ابن الجوزي : ما زلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب إنهم يشربون الخمور ويفسقون ويظلمون، ويفعلون أشياء توجب الحدود .

فبقيت أتفكر أقول متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حداً ؟ ولو ثبت فمن يقيمه ؟

وأستبعد هذا في العادة لأنهم في مقام احترام لأجل مناصبهم .

فبقيت أتفكر في تعطيل الحد الواجب عليهم، حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجائب.

فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل، والقيد الثقيل، والذل العظيم.

وفيهم من قتل بعد ملاقاة كل شدة، فعلمت أنه ما يهمل شيء، فالحذر الحذر فإن العقوبة بالمرصاد. (١)

أعداء الإسلام والحدود

وهنا لنا وقفة فقد شنع أعداء الإسلام من غير المسلمين وممن جاراهم من أعداء الله من المسلمين على الحدود في الإسلام وأنها بشعة لا رحمة فيها فكيف يقتل الزانى المتزوج ، وقاتل النفس ؟ وكيف تقطع يد السارق ؟ وكيف يجلد شارب الخمر ، وقاذف المحصنات .. ؟

وهذه الحدود لها ضمانات وشروط دقيقة لكى تطبق .

والإسلام عندما يغلظ العقوبة على جريمة إنما يهدف إلى منعها ألا ترى أن الجرائم التي لا عقوبة لها أو لها عقوبة مخففة تكثر وتتفشى

---

(1) تفسير بن كثير ج ٧ ص ٢٠٨ .

والجرائم التي تُغَلَّظ العقوبة على مرتكبها ويُشَدَّد في تنفيذها تمتنع ، لقد أصدرت الصين حكماً بالإعدام على متعاطى المخدرات عندما انتشر مدمنو المخدرات بشكل وبائى فكانت النتيجة أن امتنع الناس نهائيّاً عن تعاطى المخدرات ، ألا ترى أيضاً أن الدولة تحارب التدخين وتحذر منه وتجبر أصحاب شركات التدخين أن يكتبوا التدخين ضار بالصحة دون أن تجعل هناك عقوبة على المدخنين فلم يمتنع الناس عن التدخين ، فمنعت إعلانات السجائر في وسائل الإعلام فلم يمتنع الناس عن التدخين ، أجبرت أصحاب شركات التبغ أن يكتبوا عبارة " التدخين ضاراً جداً بالصحة " فلم يمتنع الناس عن التدخين ، فأجبرت الشركات أن يكتبوا عبارة " التدخين يؤدى إلى الوفاة " أبعد ذلك تحذير ؟! لكن دون جدوى . إنها طبيعة الإنسان الخوف من العقاب ، بجانب إقامة الدليل على تحقق الضرر ، دافعه للإقلاع عن المنكر والمحظور . كذلك أين ذهبت تحذيرات العقلاء من الغرب بوجوب الإقلاع عن الزنا والشذوذ الجنسى والخمر مع بيانهم للأضرار الخطيرة التي تسببها هذه الفواحش دون جدوى ، ولم يسلم واحد من الغرب من هذه الفواحش وارتفعت نسبة الإصابة بالأمراض الناتجة عن الزنا ، وشرب الخمر إلى أعداد وبائية تهدد المجتمع بالفناء ، ومع ذلك يعيبون على الإسلام الذي بقوانينه الإلهية ونهجه القويم عندما طبق قد منع هذه الجرائم نهائيّاً رغم أن الحدود لم تطبق إلا على أحاد الناس ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة : ٢٢٩)

إن هؤلاء الشاذين نفسيّاً وفكريّاً يدافعون عن الزناة ومدمنى الخمور ولا يهمهم بقية المجتمع من المواطنين الصالحين أليس هؤلاء من حقهم أن يعيشوا حياة آمنة يأمنون فيها على أموالهم وأعراضهم وحياتهم ؟!

إن أكثر الجرائم التي ترتكب إنما بسبب الجنس أو الخمر أو المال فإذا جاء الإسلام وصان هذه الحرمات وغيرها أيكون ديناً متخلفاً وحدوده قاسية لا رحمة فيها ؟!

فماذا ترتب على رحمتكم أنتم يا دعاة الرحمة ؟!

ألم تسل دماء الأبرياء أنهاراً من جراء رحمتكم هذه " إن معدل جرائم القتل وحده في أمريكا بلغ (أربعة وعشرين ألف) جريمة في السنة ، وهناك جريمة كل (٣) دقائق ، وآخر إحصائيات تقول بأن (٨٣ %) من الشعب الأمريكى مهدد بحدوث جريمة له " [١] هذه هى بلاد الحرية والديموقراطية والإباحية هذا هو الغرب المتحضر الذي قرأت عنه في الكتب .. جريمة .. اغتصاب .. وقتل .. وانتحار .. وشذوذ " [٢]

أكدت دراسة أمريكية فرنسية عملت لمدة عشر سنوات أن الأجزاء العارية من جسم المرأة الناتج عن ارتداء الملابس العارية الكاشفة عن مساحات كبيرة من جسم المرأة أكدت هذه الدراسات أن هذا العرى يسبب سرطان الجلد .

الإسلام دين واقعى ومن هذا المنطق الواقعى عمل الإسلام على صيانة الأعراض ومنع انتشار الفاحشة التي ما انتشرت في قوم إلا انتشرت فيه الأمراض الخبيثة التي لم تكن في أسلافه والتي لا تزال به حتى تقضى على المجتمع كله والتاريخ خير شاهد على ذلك .

الرخص في الإسلام

وشرع الإسلام الرخص لذوى الحاجات والأعذار حتى لا يكلفوا أنفسهم ما لا يطيقون ، ومن رحمته سبحانه حب إتيان الرخص من العبد حتى

---

(١) د. هالة سرحان " أمريكا خبط لزق " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٦٣ .

(٢) نفسه ص ١٠٥

لا يتحرج المعذور إذا أتى بالرخصة ويحس بالنقص أمام من أتى بالعزيمة ممن ليس له عذر كما أنه تعالى لا يريد أن يحرم الضعفاء من العبادة فإن عجزوا عن أدائها بتمامها (العزيمة) أدوها بقدر ما يستطيعون (الرخصة) .

فَعن ابْنِ عُمَرَ رضى اللَّهُ عَنْهُما قالَ: قالَ رسول الله ﷺ : "إنَّ الله يُحِبُّ أنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحُبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ " [رواهُ أَحمدُ وَصَحّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وابْنُ حِبّان]

" أن اللّه يحب أن تؤتى رخصه " جمع رخصة وهى تسهيل الحكم على المكلف لعذر حصل وقيل غير ذلك لما فيه من دفع التكبر والترفع من استباحة ما أباحته الشريعة ، ومن أنف ما أباحه الشرع وترفع عنه فسد دينه فأمر بفعل الرخصة ليدفع عن نفسه تكبرها ، ويقتل بذلك كبرها ويقهر النفس الأمارة بالسوء على قبول ما جاء به الشرع ومفهوم محبته لإتيان الرخص أنه يكره تركه فأكد قبول رخصته تأكيداً يكاد يلحق بالوجوب .. وقال الغزالى رحمه اللّه: هذا قاله تطييباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركوا الميسور من الخير عليهم لعجزهم عن منتهى الدرجات فما أرسل إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف درجاتهم وأصنافهم . قال ابن حجر رحمه اللّه: وفيه دلالة على أن القصر للمسافر أفضل من الإتمام . [١]

ومن الرخص التي رخص الإسلام فيها الإفطار للمسافر والمريض وكبار السن والضعفاء، والحامل والمرضى الذين لا يتحملون الصيام ، وإعادة ما أفطروا من أيام عند القدرة فإن كان المرض لا يرجى الشفاء منه أخرج المريض فدية طعام مسكين عن كل يوم أفطره .

---

(1) الإمام المناوى " فيض القدير في شرح الجماع الصغير " ص ٢٩٧.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٨٤]

﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة :١٨٥]

ومن الرخص التي رخص فيها النبي قصر الصلاة (أداء الصلاة الرباعية ركعتان فقط) في السفر ، وثبت قصر الصلاة بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النساء : ١٠١]

فهذه الآية قد دلت على أن قصر الصلاة مشروع حال الخوف ، وهي وإن لم تدل على أنه مشروع حال الأمن ، ولكن الأحاديث الصحيحة والإجماع قد دلت على ذلك، فمن ذلك ما رواه يعلى بن أمية ، قلت لعمر: ما لنا نقصر وقد أمنا ؟ فقال: سألت رسول اللّهﷺ فقال:" صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ" [صحيح مسلم]

وقال ابن عمر رضى اللّه عنه: صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ لا يَزِيدُ فِي السَّفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ كَذَلِكَ " [متفق عليه]

هذا وقد أجمعت الأمة على مشروعية القصر .

ورخص الله تعالى في التيمم عند فقد الماء أو تعذر استخدامه .

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾
[النساء : ٤٣]

كما رخص الشرع الحكيم في القعود في الصلاة لمن عجز عن القيام فالقيام يسقط عن غير القادر عليه ويصلى على الحالة التي يقدر عليها.

اتفقت المذاهب على أن القيام فرض على المصلى في جميع ركعات الفرض، بشرط أن يكون قادراً على القيام ، فإن عجز عن القيام لمرض ونحوه. فإنه يسقط عنه، ويصلى على الحالة التي يقدر عليها . [(١)]

كما رخص الله تعالى للمضطر أكل الميتة ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله كل ذلك رخص به للمضطر الذي يخشى الهلاك إن لم يستعن ببعض هذه المحرمات على الحياة .

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[البقرة : ١٧٣]

الاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع في مخمصة، والذي عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء في معنى الآية هو من صيّره العدم والجوع إلى ذلك، وهو الصحيح. وقيل: معناه أكره وغلب على أكل هذه المحرمات. قال مجاهد: يعنى أكره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على أكل لحم الخنزير وغيره من معصية اللّه تعالى، إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه . [(٢)]لقد أسقط الإسلام الأغلال والقيود التي كانت تثقل أهل الكتاب وتغلهم .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبي الأُمِّى الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ في التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

---

(١) عبد الرحمن الجزيرى " الفقه على المذاهب الأربعة " مبحث فرائض الصلاة .
(٢) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٢٢٥ .

وقوله تعالى: " ويضع عنهم إصرهم" فإن بنى إسرائيل قد كان أُخِذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال؛ فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه. وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك مما ثبت في الحديث الصحيح وغيره." (١)

فدين الله يسر لا مشقة فيه ذلول لا صعوبة فيه .

عن الأعرج "أنه سمع النبي ﷺ يقول: إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُه " [حديث حسن رواه أحمد والطبرانى]

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

"يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا " [متفق عليه]

***

(٣) نفسه ج ٧ ص ٣٠٠ .

كتب للمؤلف

كتب دينية

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

٣- المدارس السلفية،جدليَّة النقل والعقل والمصلحة. دار زهور المعرفة والبركة

٤- الفوائد الجمة في تفسير جزء عمَّ . " " " " " " " " " "

٥- عبقرية محمد للعقاد ، مع ضبط وتخريج الأحاديث النبوية ، ومناقشة آراء العقاد الدينية وذكر مفتاح شخصية خير البرية . " " " " " " " " " " " "

٦- ضبط وتخريج الأحاديث النبوية لكتاب " على هامش السيرة لطه حسين" مع مناقشة أفكار الكاتب واتجاهاته الدينية. " " " " " " " " " " " "

٧- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع. " " " " " " " " " " " "

٨- أبو بكر الصديق ، ومنزلة الصديقية دار نوبل للنشر والتوزيع

سلسلة نحو خطاب ديني جديد

١- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة . دار زهور المعرفة والبركة

٢- في العقيدة والشريعة والأخلاق . " " " " " " " " " "

٣- حوارات مفتوحة مع تلميذتي الصريحة . " " " " " " " " " " " "

سلسلة الإسلام وتحديات العصر الحديث

١- الإسلام والعقل الحديث . دار نوبل للنشر والتوزيع

٢- الإسلام والنفس الإنسانية . " " " " " " " " "

٣- الإسلام والوجدان .   " "   " "   " "   "   "

٤- الإسلام واحتياجات الإنسان الفسيولوجية والاجتماعية . " "   " "   " "   "   "

٥- الإسلام والحضارة .   " "   " "   " "   "   "

٦- الأزهر تاريخ من الوطنية والوسطية .   " "   " "   " "   "   "

٧- مكانة المرأة بين العادات المجحفة والشريعة المنصفة . " "   " "   " "   "   "

سلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة .   دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو .   دار زهور المعرفة والبركة

٣- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية .   " "   " "   " "   " "   " "

٤- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي   " "   " "   " "   " "   " "

٥- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي   " "   " "   " "   " "   " "

٦- أمريكا وعبد الناصر من التحالف إلى العداء   " "   " "   " "   " "   " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- الإستراتيجية الصهيونية تجاه العرب ، والمنهج الإلهي لميراث الأرض .

دار هبة النيل العربية

٢- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي .

دار الإبداع للصحافة والنشر

٣- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن. " "   " "   " "   " "

٤- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة " "   " "   " "   "

٥-اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية .   " "   " "   " "   " "   " "

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون ، دراسة في الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ . دار زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . " " " " " " " " " " " "

كتب عن الحضارة المصريَّة

١- حضارات مصر ونهضاتها . دار زهور المعرفة والبركة

٢- لسنا فراعنة ولا عرباً ولا أورمتوسطين فمن نكون ؟ " " " " " " " " " " " "

٣- البحث عن شخصية مصر الحقيقية دار نوبل للنشر والتوزيع

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون (قصص قصيرة) دار زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) " " " " " " " " " " " "

٤- القاهرة ، يناير ٢٠١١ (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٥- شهادات رموز ومعالم مصرية حديثة على بطولات مصرية مجيدة . (قصص مصورة للنشء والشباب) دار زهور المعرفة والبركة

٦- طرائف ونوادر مدرسين معاصرين . " " " " " " " " " " " " " "

مذكرات أديب مغمور (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٧- أحلام مواطن متفائل .(سيرة فكرية) " " " " " " " " " " " " " "

٨- حكايات جنود في سيناء . (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

٩- حكاية لكل امرأة وبنت . (رواية) " " " " " " " " " " " " " "

كتب أطفال

* سلسلة أصدقاء البيئة (٨ قصص) دار زهور المعرفة والبركة

* السلسلة النفيسة في ثورات مصر الحديثة (٥ قصص) " " " " " " " " " " " "

* سلسلة لغز الحضارة المصرية القديمة (٨ قصص) " " " " " " " " " " " "

* سلسلة منجزات الحضارة المصرية القديمة (٦ قصص) " " " " " " " " " " "

توجد كتب المؤلف في مكتبات أفضل ٤٠ جامعة على مستوى في العالم، ومعظم الجامعات العربية، ومعظم مدارس وجامعات مصر ، وكتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

استضافته قناة النيل الثقافية في برنامج " الرفيق " لعرض كتابه "متى يثور المصريون".

- قررت دولة قطر قصة " وردة المدرسة " على الصف الثالث الابتدائي .
- نشرت له جريدة الأهرام العربي سلسلة مقالات عرض فيها أربع كتب :

١- أبو وبكر الصديق ومنزلة الصديقية .
٢- أخلاق الإسلام وتنمية المجتمع .
٣- عبقرية محمد للعقاد .
٤- مناقشة معاصرة لقضايا المرأة المسلمة .

التليفون المحمول: ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩ -٠١١٤٢٠٤٣٩٤٠

البريد الالكتروني: yuness2005@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

الموضـوع | الصفحة

فِطرَةُ الله التي فطرَ الناس عليها

الإسلام والحواس

الموضـوع	الصفحة

حكمة الله تعالى في خلق الدوافع الفسيولوجية

العقوبات على الجرائم الأخلاقية

